

امام اعرب



عبد الرحمن النکوی

تألیف: دکتور محمد علی

المجلد
العدد
العام
الكتاب

عبد الرحمن الكواكبي

تأليف : دكتور محمد عبد الرحمن يسوع

الهيئة
المصرية
العامه
للكتاب

أعلام العرب

عبد الرحمن الكواكبي

تأليف: دكتور محمد عبد الرحمن بوع

الهيئة المصرية العامة للكتاب
دار التأليف والنشر

١٩٧٢



مرکز تحقیقات کاتبان علوم اسلامی

الخليفة عربيا قرشيا كسابق العهد عندما كان الأمر بيد العرب والخلافة الاسلامية منحصرة فيهم . فلما خرجت منهم اعوج أمر هذا الدين وتدهور شأنه لأن الأمر صار الى غير أهله .

على ان الفضل الكبير الذى تدين به الأمة العربية للكواكبي أنه نظر اليها نظرة الطبيب الى المريض فأخذ يفتش عن مواطن الداء يبغى استئصاله ويقر العلاج الحاسم اللازم له ويجوب أنحاء الوطن العربى يستقصى وينقب ويسأل ويبحث حتى يكون ما يقرره من علاج لهذا الانحطاط الذى ران على أمتة علاجاً شافياً ناجحاً .

ولقد شهدت الأمة العربية عدداً من دعاة الإصلاح قبل الكواكبي وبعده ، لكن انشأ الذى بز به هذا المصلح العظيم أقرانه الآخرين أنه أحسن تشخيص الداء فأحسن ذكر الدواء . جاءت كتابته كتابة باحث علمى عملى يحلل ويذكر الاعراض ويصف الداء وسببه والعلاج الناجع له . فهو لا يرجع أسباب انحطاط الأمة العربية الى جانب واحد أو الى شئ معين ، لكنه يرجعه الى أسباب عدة ومنازع شتى ثم هو يجمله فى أسباب دينية وأخرى سياسية وغيرها أخلاقية . يتصدر الاسباب الدينية موقف بعض العلماء من ديننا الحنيف السمع ، هؤلاء الذين أدخلوا على الدين ما ليس فيه وما لم يدع به نبينا صلى الله عليه وسلم ، فلم يعد بسيطاً كما كان انما أصبح التشدد والتعصب سماته والخرافات والبدع مظاهره .

كذلك يرجع الاسباب السياسية الى الاستبداد الذى فرض على أبناء هذه الأمة فحرهم حرية القول والعمل وأفقدهم الامن والأمل . أما الاسباب الاخلاقية فأفاض فيها الكواكبي وبسط وأطال وكان صريحاً عنيفاً فى وقوفه فى وجه أولئك اليائسين المتشككين المشككين فى مقدرة هذه الأمة رغم عظم قدراتها . فهو يقول على لسان رئيس جمعية أم القرى التى تخيل عقدها فى مكة للبحث والتدارس فى

شئون المسمين • ينبغي أيها السادات أن لا يهولنا ما ينبسط في جمعيتنا من تفاقم أسباب الضعف والفتور كيلا نياس من روح الله وأن لا نتوهم الاصابة في قول من قال ان أمتنا ميتة فلا ترجى في حياتنا ، كما لا اصابة في قول من قال اذا نزل الضعف في دولة أو أمة لا يرتفع • فهذه الرومان واليونان والامريكان والطيان واليابان وغيرها كلها أمم أمثالنا استرجعت نشأتها بعد تمام الضعف وفقد كل اللوازم الادبية للحياة السياسية ؛ ثم هو يحمل في شدة على هؤلاء الدعاة بأقوال كانت السبب في استسلام الكثيرين وعجزهم عن تغيير أحوالهم بقولهم ان المسلم مصاب وأن الله اذا أحب عبدا ابتلاه ، وان أكثر أهل الجنة البله أو قولهم حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه الى آخر هذه الأقوال •

ويرى الكواكبي ان الامة العربية أحوج ما تكون لشبابها رجال المستقبل وصانعي مجدها في غدها ويخشى من تسلط أفكار اليأس والاستسلام التي يبيتها من بيدهم أمر هؤلاء الشباب ، انى أرى ان هذا الفتور بالغ في غالب أهل الطبقة العليا من الامة ولا سيما في الشيوخ لأننا نجدهم ينتقصون أنفسهم في كل شىء ويتعاجزون عن كل عمل ويحجمون عن كل اقدام ويتوقعون الخيبة في كل أمل • • وهؤلاء الواهنة يشق عليهم مفارقة حالات ألفوها عمرهم كما يألف الجسم السقم فلا تلذ له العافية ، فانهم منذ نعومة أظفارهم تعلموا الادب مع الكبير يقبلون يده أو ذيله أو رجله وألفوا الاحترام فلا يدوسون الكبير ولو داس رقابهم وألفوا الثبات ثبات الأوتاد تحت المطارق وألفوا الانقياد ولو الى المهالك وألفوا أن تكون وظيفتهم في الحياة دون النبات ذاك يتناول وهم يتقاصرون ذاك يطلب السماء وهم يطلبون الارض كأنهم للموت مشتاقون • وهكذا طول الألفة على هذه الخصال قلب في فكرهم الحقائق وجعل عندهم المخازى مفاخر فصاروا يسمون التصاغر أدبا والتذلل لطفًا والتملق فصاحة واللكنة رزانة وترك الحقوق سماحة وقبول الاهانة تواضعا •

وبعد أن يحمل الكواكبي على هؤلاء الذين ألفوا الفتور والخور
يخشى أن يبثوا سمومهم في الناشئة فهو يقول «وليعلم ان الناشئة
الذين تعقد الامة آمالها بأحلامهم عسى يصدق منها شيء وتتعلق
الأوطان بحبال هممتهم عساهم يأتون فعلا هم أولئك الشباب ومن في
حكمهم المحمديون المهذبون الذين يقال فيهم ان شباب رأى القوم عند
شبابهم الذين يفتخرون بدينهم .. الذين يعلمون أنهم خلقوا أحرارا
فيأبون الذل والأسار الذين يودون أن يموتوا كراما ولا يحيون
لثاما .. الذين يحبون وطنهم حب من يعلم أنه خلق من تراب ..
والذين يعشقون الانسانية ويعلمون ان البشرية هي العلم والبهيمية
هي الجهالة .. الذين يعتبرون ان خير الناس أنفعهم للناس .. الذين
يعرفون ان القنوط وباء الآمال والتردد وباء الاعمال .. الذين يفقهون
أن القضاء والقدر هي السعي والعمل .. الذين يوقنون ان كل ما على
الارض من أثر هو من عمل أمثالهم البشر فلا يتخيلون « المقدرة ولا
يتوقعون من الأقدار الا خيرا »

كذلك رأى الكواكبي ان أحد أسباب تخلف أمته هي أنها
لا تتبع ما نسميه اليوم بالنظام الاشتراكي واذا كان الكواكبي لم يدع
الى هذا المذهب صراحة فان ما نادى به هو لب الاشتراكية وجوهرها .
لقد نادى بأن توزيع الاراضى فيه أجحاف بالفقراء والفلاحين والعمال
واشترط حياة المال بعض الشروط : «الشرط الأول أن يكون احرار
المال بوجه مشروع حلال أى باحرازه من بذل الطبيعة أو فى مقابل
عمل . والشرط الثانى أن لا يكون فى التحول تضيق على حاجيات
الغدير كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء أو
التغلب على المباحات مثل امتلاك الأراضى التى جعلها خالقها مراحا
لكافة مخلوقاته » .

أما دعوته الى تعليم المرأة فقد سبق بها كل المصلحين الآخرين
مثل قاسم أمين وغيره ومن قوله فى هذا المقام ، ان لانهلال أخلاقنا

سببا آخر يتعلق بالنساء وهو تركهن جاهلات على خلاف ما كان عليه أسلافنا حيث كان يوجد فى نساينا كأى المؤمنين عائشة رضى الله عنها التى أخذنا عنها نصف ديننا ، وكمثات من الصحابيات والتابعيات راويات الحديث والمتفقهات فضلا عن ألوف العالقات والشاعرات اللاتى فى وجودهن فى الصدر الاول بدون أنكار حجة دامغة ترغب أنف غيرة الذين يزعمون ان جهل النساء أحفظ لعفتهن فضلا عن أنه لا يقوم لهم برهان على ما يتوهمون حتى يصح الحكم بأن العلم يدعو للفجور ، وأن الجهل يدعو للمعفة . نعم ربما كانت العالمة أقدر على الفجور من الجاهلة ولكن الجاهلة أجسر عليه من العالمة ثم ان ضرر جهل النساء وسوء تأثيره فى أخلاق البنين والبنات أمر واضح غنى عن البيان وانما سوء تأثيره فى أخلاق الأزواج فيه بعض خفاء يستلزم البحث . . . » .

هذه بعض لمحات سريعة عارضة لجوانب العظمة فى دعوة الكواكبى . والامم فى محبتها أشد ما تكون حاجة الى تاريخها تفتش فيه وتنقب وتبحث عن جوانب العظمة الكامنة فى هذا التاريخ تتخذ منه زادا يعينها فى نضالها ونبراسا يضىء لها الطريق ويحيى موات الأمل فى تلك النفوس التى يسعى التخاذل الى أوصالها ويثبط بعض تلك الهمم .

ولقد عشت فترة طويلة من الوقت ادرس الكواكبى ودعوته الاصلاحية التى نادى والصيحة الثورية التى انطلق بها قلمه وذلك حين عهدت الى جامعة الجزائر من بين ما عهدت الى تدريس مادة اليقظة العربية لطلابها فى ليسانس قسم التاريخ ، فلم أجد أمتنا أحوج ما تكون لشيء مثل حاجتها الى ما نادى به الكواكبى وما دعا اليه . وكأنى بالكواكبى يعيش معنا أيامنا هذه ويرى أمتنا العربية على ما هى عليه فيكتب فى أسباب ذلك وعلاجه ذلك ان ما كتبه الكواكبى لم يكن غشاء أذرت به الرياح أو كلمات طوتها الأيام

والسنون مثلما طوت غيرها من الكلمات والكتابات . ولكن كلمات الكواكبي وكتاباته كانت صادرة عن مبادئ عربية أصيلة ووعى عربى كبير واحساس بمواطن الضعف فى هذه الامة . وما أحوج علماء ديننا وما أشد حاجة شبابنا وفتياتنا بل ما أشد حاجة كل فرد من أبناء أمتنا أن يأخذ من كلمات الكواكبي دليلا ونبراسا نستضى به فى مرحلة حاسمة من مصيرنا ينبغى أن نجمع فيه أسباب القوة والعزة وأن ننفض عن أنفسنا كل دعوة يأس وهمسة شك فى مقدراتنا وقدراتنا .

أما حياته نفسها فكانت بحق نموذجا لشخصية عظيمة أبت الركون الى الظلم والظيم فثارت فى وجه هذا الظلم صارخة غير مستسلمة له ولا راضية به . وسيلمس القارئ الكريم حين يمر على صفحات هذا الكتاب ان صيحة الكواكبي للمناداة بالحرية وما لقيه بسببها من سجن وتشريد جاءت فى وقت أحصى على الناس كل حركاتهم وسكناتهم وأصبح الشك فى أى شخص كفيل بزجه فى غياهب السجون . لكن ذلك لم يزد الكواكبي الا ايمانا بأن الاستبداد هو عدو الحق والحرية وقاتلهما . ولما أحس ان أمته رضيت بهذا الاستبداد واستكانت له أخذ يحسها على ما صارت اليه حالها ومآلها . يشعرها بحقها . فهو يقول :

ان المستبد يود أن تكون رعيته بقرا تحلب وكلابا تتذلل وتملق وعلى الرعية أن تدرك ذلك فتعرف مقامها منه هل خلقت خادمة له أو هي جاءت به ليعدها فاستخدمها ؛ والرعية العاقلة مستعدة أن تقف فى وجه الظالم المستبد تقول له لا أريد الشر ثم هي مستعدة لأن تتبع القول بالعمل فان الظالم اذا رأى المظلوم قويا لم يجرؤ على ظلمه ؛

كان الكواكبي يؤمن بأن الاحساس بالظلم هو بداية الطريق للحرية ومن هنا ينبغى أن يوضع الكواكبي بالنسبة لأمتنا فى مصاف

كبار كتاب الثورة الفرنسية من أمثال فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو وغيرهم .

أما دوره في اليقظة العربية فلا يختلف المؤرخون على أنه كان أول من وضع لها أسسها وأشاد بأهميتها . نادى بالقومية العربية قبل الكواكبي بعض المسيحيين العرب الذين تثقفوا بالثقافة الغربية أمثال ناصيف اليازجي وبطرس البستاني وكان بدء حركة اليقظة العربية على يد المسيحيين العرب أمرا طبيعيا ذلك ان المبشرين البروتستانت والكاثوليك قاموا بالدعوة الى مذهبهم من العرب وكان من الطبيعي أن يكون نشاطهم واتصالهم مع المسيحيين العرب وحتى تنجح دعوتهم بدأوا في ترجمة الانجيل الى اللغة العربية واستعانوا في هذا المضمار بأعظم أدباء العرب في ذلك العصر كي يتوصلوا الى ترجمة بليغة أدبية ذات قيمة . كما أنهم بذلوا جهودا جبارة لتعلم اللغة العربية تعلم اتقان كي يستطيعوا أن يخطبوا بها بين الناس بطلاقة وبلاغة كما أنهم أسرعوا الى انشاء المدارس التي تعلم اللغة العربية حتى تنجح دعوتهم ودعايتهم بين الناس .

وهكذا مضت حركة اليقظة العربية في أول أمرها على يد المسيحيين العرب . وكانت نتيجة اهمال العثمانيين لتعليم اللغة العربية ومطاردتها في العصر العثماني ان اللغة العربية لم تجد سوى ملجأ واحدا هي الارساليات التبشيرية المسيحية في بلاد الشام بالذات .

ثم كانت دعوة الكواكبي لحركة بعث الامة العربية فجاءت دعوته أول دعوة في مجال اليقظة العربية على يد أحد أبنائها المسلمين . ولم يكن ذلك عن تعصب من الكواكبي تعصبا دينيا ، فالمعروف ان الكواكبي نبذ التعصب ورآه آفة الخطر يتجاوز خطره كل آفة أخرى . **لقد رأى ان رابطة الوطن ينبغي أن تكون فوق كل رابطة (١) .**

(١) يوسف أسعد داغر : مصادر الدراسات الادبية ج ٢ القسم الاول سنة

ففى كتابه « أم القرى » يتطرق المؤلف خلال أبحاثه عدة مرات الى قضايا الامة العربية لأنه يعتقد ان العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية . وينتقد الكواكبى الحكومة العثمانية انتقادا مرا ويصرح بأن حقوق العرب مهضومة ويقول من أهم الضروريات أن يحصل كل قوم من أهالى تركيا على استقلال نوعى ادارى يناسب عاداتهم وطبائع بلادهم . ثم انه ينفى عن العرب التعصب الدينى والجنسى وللبرهنة على ذلك يشير الى عدم اشتراك البلاد العربية فى حوادث لبنان (١٨٦٠) ويقول (واما حوادث لبنان والشام وحلب فى القرن السابق القرن التاسع عشر) فما كانت متولدة عن تعصب دينى أو جنسى بل من غرور جماعة من الدروز بالانكليز وجماعة من المسيحيين بنابليون الثالث (١)

ونادى الكواكبى بأنه اذا كان على العالم الاسلامى أن يقف فى جبهة واحدة فلا بد أن تكون القيادة عربية وأن يكون مركزها مكة (أم القرى) لا اسطنبول (٢) .

وبعد فما احوجنا فى وقتنا هذا أن نمثل أقوال المخلصين من أبناء أمتنا العربية وأن نسترشد بهذه الاقوال وأن نستعين بها ونرجع اليها . وما احوجنا الى أن نمثل دور هؤلاء المخلصين ونضالهم وكفاحهم كمثال أعلى ونموذج طيب صالح فى وقت أصبح شباب هذه الامة أحوج ما يكون للمثل والقدرة الصالحة يقتدون بها ويهتدون وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون .

جامعة الجزائر فى ١/١/١٩٧١

(١) ساطع الحصرى : نشوء الفكرة القومية ص ١٩٧ ط ٤ .

(٢) محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق الغربى ص ٢٧٠ .



الفصل الأول

عصر الکبر اکیح

ينبغي لمن يؤرخ لعبد الرحمن الكواكبي أن يتناول بالدراسة العصر الذي عاش فيه الكواكبي وأن يعرض لمظاهر الانحطاط في الدولة العثمانية وحكمها للبلاد العربية . ذلك أن الكواكبي تصدى لهذا الاستبداد الذي شهدته البلاد العربية على عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) ثم ان كتابه الذي ألفه بعنوان طبائع الاستبداد ، كان موجها ضد السلطان عبد الحميد بالذات وأن لم يشر الكواكبي الى ذلك في صراحة . كما أن حياة الكواكبي نفسها وهجرته الى مصر كان فرارا من وجه السلطان المستبد عبد الحميد . كذلك جاء كتابه أم القرى ، يحمل حملة شعواء على الاتراك العثمانيين وعلى تاريخهم فهو يورد على لسان أحد أمراء المسلمين مناقشة دارت بينه وبين العضو الهندي في جمعية أم القرى ما يؤكد ذلك ويدل عليه دلالة واضحة .

يقول الأمير : أرجوك ألا تنظر للمسألة بنظر العوام بل بنظر حكيم سياسى فابعد النظر ماضيا ومستقبلا ، وقلب صفحات التاريخ بدقة تجدان ادارة الدين وادارة الملك لم يتحدا في الاسلام تماما الا في عهد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز فقط رضى الله عنهم . واتحدت نوعا في الامويين والعباسيين ثم افترقت الخلافة عن الملك . وأما سلاطين آل عثمان الفخام فاني أذكر لك نموذجا من أعمال لهم أتوها رعاية للملك وان كانت مصادمة للدين فأقول هذا السلطان

محمد الفاتح وهو أفضل آل عثمان قدم الملك على الدين فاتفق سرا مع فرديناند ملك (الاراغون) الاسبانيولى ثم مع زوجة (ايزابيلا) على تمكينهما من ازالة ملك بنى الأحمر آخر الدول العربية فى الاندلس، ورضى بالقتل العام والاكرأه على التنصر بالاحراق وضياع خمسة ملايين من المسلمين باعانتها باشغاله أساطيل أفريقيا عن نجدة المسلمين ..

وهذا السلطان سليم غدر بآل العباس واستقصاهم حتى انه قتل الأمهات لأجل الأجنة ، وبينما هو يقتل العرب فى الشرق كان الاسبانيون يحرقون بقيتهم فى الاندلس ، وهذا السلطان سليمان ضايق ايران حتى ألجأهم الى اعلان الرفض المكفر .. »

ثم يعود على لسان هذا الامير فى كتابه أم القرى يعدد ما فعله العثمانيون منها انهم سعوا فى انقراض خمسة عشر دولة وحكومة اسلامية وأغروا الروس على التتار وهولاندة على جاوة وتعاقبوا على تدويخ اليمن ، فأهلكوا الى الآن عشرات المسلمين . ثم يأتى على ما أباحه السلطان عبد الحميد من الربا والخمور وأبطال الحدود . ويمضى الكواكبى فى صفحات كاملة من كتابه أم القرى يحمل حملة كبرى على العثمانيين فيقول : أليس الترك قد تركوا الامة أربعة قرون ولا خليفة ، وتركوا الدين تعبت به الأهواء ولا مرجع ، وتركوا المسلمين صما بكما عميا ولا مرشد . أليس الترك قد تركوا الاندلس مبادلة وتركوا الهند مساهلة وتركوا الممالك الآسيوية للروسين وتركوا قارة أفريقيا الاسلامية للطامعين وتركوا المداخلة فى الصين كأنهم الأبعدون .

« أليس الترك قد تركوا وفود المسلمين يعودون خائبين وتركوا المستنصرين بهم عرضة للمنتقمين وتركوا ثلثى ملكهم طعمة للمتغلبين . فهل والحالة هذه ما آن لهم أن يستيقظوا ويصبحوا من

النادمين على ما فرطوا فى القرون الخالية فيتركون الخلافة لأهلها
والدين حماته . . » يشير الكواكبى بالطبع الى حق العرب فى الخلافة
وحماية الدين .

ويؤكد الكواكبى انه غير متعصب للعرب وانما يراه ما لا بد
أن يراه كل حر مدقق يتفحص الامر من أن الغيرة على الدين وأهله
والاستعداد لتجديد عز الاسلام منحصرآن فى أهل البدوية من العرب
حيث ان المشيئة الالهية قد حفظتهم من تلك الأمراض الأخلاقية
كفالج الحرية فى الحواضر باعتقاد أهلها أنهم خلقوا انعاما للامراء
وكجذام التربية فى المدن بوصفهم النساء فى مقام ربائط
للاستمتاع . . » الى آخر ما جاء فى كتاباته مما سوف نتناولها فى
موضعها من هذا الكتاب بمشيئة الله .

كان من الضرورى اذا أن نتناول بالدراسة العصر الذى عاش
فيه الكواكبى وهو النصف الثانى من القرن التاسع عشر وهى الفترة
التي ولد فيها الكواكبى وعاش وترعرع ثم حمل القلم دفاعا عن حق
أمتة أمام صروح الظلم والطغيان التي استبدت بها وطغت عليها
وارسفتها بقيود ثقيلة لا سبيل الى الفكك منها الا بأن يحس أهلها
بحقهم فى الحرية والاستقلال والسيادة .

من المعروف ان الدولة العثمانية وصلت أوج اتساعها وقمة
مجدها فى عهد السلطان سليمان القانونى فامتدت الامبراطورية
العثمانية على عهد من الدانوب الى الخليج العربى ومن أراضى
الاستبس فى أوكرانيا الى الشلال فى جنوب مصر . وحين استكملت
الدولة العثمانية عناصر قوتها ونظمها بدأت تدخل فى دور التدهور .

وجاء تدهور الدولة العثمانية من عدة عوامل داخلية أهمها ان
السلطين العثمانيين بعد سليمان القانونى كانوا سلسلة من الحكام
الضعاف الذين يفتقرون الى دراية باحتياجات الامبراطورية الجديدة .

كذلك اختل نظام الانكشارية حيث فقد هذا الجيش بالتدريج كل ما كان له من نوايا وتحول آخر الأمر الى آلة فساد وفوضى فتضاءل ارتباط الانكشارية بثكناتهم ولم تعد حرفتهم الجندية الصرفة كما كان أمرهم على عهد قوة الدولة العثمانية ، وانما أصبحت الجندية مهنة ارتزاق فلم يعد يذهب كثير منهم الى ثكناتهم الا لاستلام مرتباتهم ووقف جنود الانكشارية حجر عثرة أمام كل إصلاح حتى ان السلطان سليم الثالث الذى حكم الدولة العثمانية ما بين سنتى ١٧٨٩ - ١٨٠٧ دفع ثمن حياته عندما أقدم على ادخال عدد من الاصلاحات فى الدولة العثمانية . فلقد كان سليم معجبا بالثقافة الفرنسية وأراد أن تكون تركيا شبيهة بأوروبا فى التقدم . لكن الانكشارية وقفت للسلطان سليم بالمرصاد فخلعوه عن العرش ثم اغتالوه بغية اجتثاث جذور الإصلاح من جذوره . (١)

وظلت الانكشارية عقبة كأداء فى سبيل الإصلاح حتى نجح السلطان محمود الثانى الذى تولى عرش الدولة العثمانية فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠٩ - ١٨٣٩) فى القضاء عليهم نهائيا سنة ١٨٢٦ . وكانت الهزائم قد توالى على الدولة العثمانية فى عهده . فكان عليه أن يعترف بالحكم الذاتى للصرب وتبع ذلك ثورة على باشا فى ألبانيا (١٨٢٠ - ١٨٢٥) وثورة اليونان فى المورة . ولما كان السلطان العثماني غير قادر على سحق ثورة اليونان فقد استعان محمود الثانى بمحمد على لسحق هذه الثورة . وحاول السلطان محمود الثانى أن يكسب العلماء الى جانبه ليؤيدوه فيما أقدم عليه من اصلاحات لكنهم كانوا كالانكشارية عقبة فى سبيل كل اصلاح .

(١) الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٧٤

وكذلك ارجع الى Devereux : The First Ottoman Constitutional period pp. 30-31.

وكان هؤلاء العلماء سواء من منهم فى القضاء أو الامامة أو الافتاء أو مشايخ الطرق أو المعلمين يشتد نفوذهم ويقوى كلما ضعفت الدولة العثمانية وصارت الدولة تلجأ الى وساطتهم فى كثير من الامور وتستصدر منهم الفتاوى المختلفة ومن أجل هذا سعت الى استرضائهم فى شتى المناسبات . بل صار أصحاب المطامع يسعون وراءهم لتحقيق أغراضهم الخاصة . وفى الوقت الذى كان عددهم يزداد ونفوذهم يشتد كان المستوى العلمى للكثيرين منهم ينحط وثقافتهم الدينية تضعف وصارت تنتشر بينهم ضروب من التعصب الأعمى .

ومن المعروف ان الكواكبى فى كتاباته تصدى أول ما تصدى لهؤلاء العلماء الذين وصفهم بالمدلسين الذين ضيعوا الدين وأهله . ورأى ان فئة منهم اخترعوا عبادات وقربات لم يأت بها الاسلام ويقول عنهم فكأن الله تعالى ترك لنا ديننا ناقصا فهم أكملوه . . . ومنهم قوم يعتبرون البلادة سلاحا والخمول خيرا والخبل خشوعا والصرع وصولا والهذيان عرفانا والجنون منتهى المراتب السبع للكمال .

ثم كان أن اقدمت الدولة العثمانية على عهد السلطان عبدالمجيد على محاولة اتمام حركة الاصلاحات وتنظيم أمورها على نحو ما هى عليه فى الدول الاوربية الاخرى المتقدمة . ولذلك عرفت هذه الاصلاحات بالتنظيمات ، لكن حركة الاصلاح هذه أيضا لم تؤت ثمرتها المرجوة فجاءت محاولة للتقليد دون أن يؤمن القائمون بأمرها ان شئون كل دولة تختلف عن الاخرى .

وأشار الكواكبى فى كتابه أم القرى الى هذه التنظيمات فوصف حال الدولة العثمانية بأنها كانت قبلها خيرا منها بعدها فعطلت أصولها القديمة ولم تحسن التقليد ولا الابداع فتشتت حالها ولا سيما فى العشرين سنة الاخيرة التى ضاع فيها ثلثا المملكة وضرب الثلث الباقي وأشرف على الضياع لفقد الرجال . . .

وإذا كانت الدولة العثمانية قد حددت سلطات الولاية إلا أنها اقتبست كثيرا من النظم الاجنبية وغالت في المركزية فانتقلت من الافراط الى التفريط وعانت البلاد العربية كثيرا من هذا الاجراء .
وحاول بعض الولاة المصلحين مثل مدحت باشا وغيره أن يجعلوا الدولة تخفف من غلوائها في المركزية فذهبت جهودهم ادراج الرياح .

وتستند هذه التنظيمات التي أصدرتها الدولة العثمانية الى مرسومين صدر الأول سنة ١٨٣٩ وعرف باسم منشور كلخانة نسبة الى قصر كلخانة الذي صدر فيه والثاني سنة ١٨٥٦ عرف باسم منشور التنظيمات الخيرية . يقرر الاول الحقوق التي ينبغي أن يتمتع بها كل فرد في الدولة العثمانية وهي : أمنية الروح والعرض والمال . ذلك أن أبناء الدولة العثمانية حتى ذلك الحين لم يكونوا يأمنون على أرواحهم أو أموالهم . فكثيرا ما كان الاشخاص يعدمون من غير محاكمة ولم يكن ذلك يتم بأمر السلاطين فحسب بل بأمر الولاية كذلك . وكانت الدولة العثمانية تختار للولايات ولالة ليسوا بذات كفاءة حتى أصبحت الامارة وراثية في كثير من البيوت ، كامارة مكة وامارات العشائر الضخمة في الحجاز والعراق .

وقد فسر الكواكبي السر في ذلك بأن الهدف منه « أن يكون الامير منفورا ممن ولى عليهم مكروها عندهم فلا يتفق معهم ضد الدولة » .

والى جانب منشور كلخانة صدر منشور آخر عقب حرب القرم التي وقعت بين روسيا وتركيا سنة ١٨٥٦ عرف بمنشور التنظيمات . أكد هذا المنشور الاخير ما سبق أن قرره المنشور السابق ولكنه أضاف اليه بندا هاما هو معاملة جميع تبعة الدولة (الغير المسلمين من أبناء الدولة) مهما كانت أديانهم ومذاهبهم معاملة متساوية مع المسلمين من أبناء الدولة . كما صرح في الوقت نفسه ابقاء الامتيازات

الممنوحة لرؤساء الملل غير المسلمة على أن تنظم بقوانين جديدة .
كما وعد بإصدار قانون جديد لإصلاح شئون الولايات . وتضمن
المنشور كذلك أن جميع الوظائف في الدولة أصبحت من حق كل
رعايا السلطان بلا استثناء أو تفريق بينهم كما سمح للأجانب
بالملكية في الدولة بشروط خاصة (١) .

كان الدافع والأساس وراء إجراء هذه التنظيمات المذكورة هو
ضغط الدول الأوروبية ومطالبتها بالإصلاح خاصة بالنسبة للمسيحيين
التابعين للدولة العثمانية . وبرغم هذا لن يكن الإصلاح عن اقتناع
وايمان من جانب القائمين عليه والمنادين به برغم وجود عدد من
رجال الدولة المستفيدين الذين كانوا يرون ضرورة إصلاح جهاز
الدولة وتجديده على أساس اقتباس النظم الأوروبية من غير مساس
بالأحكام الشرعية . وعلى كل فثمة نقد شديد يوجه إلى حركة
التنظيمات الخيرية ذلك أن الحماس كان شديدا للأخذ بنظم الغرب
وأساليبه ، لكن هذا الحماس لم يتعد الجانب الشكلي فقط دون
وجود الظروف الموضوعية التي تمكن من فاعليتها . وهذا ما عبر
عنه الكواكبي بقوله « ان الدولة أحسنت التقليد ولم تحسن
الابداع » .

وكانت النتيجة ان أصبحت التنظيمات مجرد مبادئ مكتوبة
على ورق فلم يستطع السلطان أن ينقد ما جاء بها بل نجح أعداء
التقدم والإصلاح في إبعاد رشيد باشا الذي كان من وراء هذه
التنظيمات يؤيدها ويتحمس لها . ونجحوا في ذلك حتى عينه
السلطان سفيراً لتركيا في باريس سنة ١٨٤١ . (٢) ولم تتحقق
التسوية بين المسلمين والمسيحيين فظلت الوظائف العامة لا سيما

Devereux : The First Ottoman Constitutional Period, p. 23. (١)

Revereux : p. 23. (٢)

الوظائف الادارية والقضائية شبه محصورة بالمسلمين فعلا وان لم يكن قانونا . وظلت الدول الاوربية تستفيد من هذه الاوضاع فى بسط حمايتها على المسيحيين وتحريكهم بين الحين والآخر فاستمرت فرنسا تدعى حماية الكاثوليك فى جميع أنحاء الدولة العثمانية وظلت روسيا تعتبر نفسها حامية الارثوذكس وصارت انجلترا تحمى البروتستانت فضلا عن اتصالها ببعض الطوائف الأخرى (١) .

وشهدت البلاد العربية تغييرات كبيرة على عهد التنظيمات فقد أخذت الدولة العثمانية تطبق فيها هذه التنظيمات بدرجات متفاوتة . فسوريا وبيروت وحلب كانت أولى الولايات التى طبقت فيها هذه التنظيمات تطبيقا شاملا وسريعا . أما تطبيقها فى ولايتى بغداد والبصرة فكان أقل سرعة وأقل شمولاً . أما ولايتى اليمن والحجاز فلم تشهد من التغييرات الا الشيء القليل . ولقد كان للقرار الخاص بتنظيم شئون البطاريكات والمجالس المليية ان زاد ترابط الجماعات المسيحية وأخذت الدول الاوربية خلال عهد التنظيمات تتنافس فى توسيع نفوذها فى البلاد العربية عن طريق تأسيس مدارس تنشر لغتها وثقافتها . وكانت حلب - وهى موطن العلامة الكواكبي - من تلك الولايات التى نالت حظا كبيرا من هذه المدارس الاجنبية وهذا النفوذ الغربى مما كان له تأثيره على الثقافة والنهضة العلمية فيها بوجه خاص .

وكان من الممكن أن تثمر التنظيمات ثمرتها المرجوة لولا هؤلاء الذين كانوا يقفون فى وجه كل حركة اصلاحية فى الدولة العثمانية واستعان هؤلاء المعارضون بالعلماء الذين أفتى بعضهم بعدم قانونيتها على أساس أنها تعطى لغير المسلمين ما للمسلمين من حقوق . وحدث هذا فى وقت كانت الاصلاحات مسألة تقتضيها

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٩٣

الضرورة للحيلولة دون ازدياد تدخل الدول الأوروبية في أمور الدولة العثمانية بحجة المحافظة على حقوق الرعايا المسيحيين في الدولة العثمانية .

ومع حلول عام ١٨٧٦ أصبح الموقف متدهورا في الدولة العثمانية فقد فشلت حركة الاصلاحات التي أقدمت عليها الدولة العثمانية والتي أصدرت بشأنها منشورى التنظيمات التي سبق أن أشرنا اليها . وأسوأ من ذلك ازدياد القروض فقد كان لموت السلطان عبد المجيد سنة ١٨٦١ وتولى السلطان عبد العزيز أمور الدولة ان ساء الموقف عن ذى قبل . فقد اشتهر عن السلطان الجديد اسرافه وبذخه وتوالت الديون على الدولة العثمانية حتى ان الباب العالي اضطر في أكتوبر سنة ١٨٧٥ الى أن يخصص ميزانية الدولة لتسديد الدين وخسرت الدولة أكثر ممتلكاتها في البلقان . ورغم تمكن القوات العثمانية من اخماد ثورة الجبل الاسود والبوسنة والهرسك والصرب وكريت فقد خسرت هذه المقاطعات . كذلك اتحدت ولايتا الأفلاق والبغدان لتشكلا الدولة الرومانية . ولم تكن حالة الولايات العربية بأفضل من ذلك فقد اشتد التدخل الاجنبى في شئون تونس ومصر بعد أن ازدادت ديونهما وأخذت فرنسا ترنو الى تونس بعد بسط نفوذها على الجزائر سنة ١٨٣٠ كذلك ازداد النفوذ الفرنسى في لبنان وغيرها من الاقطار السورية ونالت الشركات الفرنسية امتيازات عديدة في تلك البلاد . (١)

ومضت الدولة العثمانية على عهد السلطان عبد العزيز في تدهور مستمر لا تجد من يوليها العلاج الحاسم الناجع خاصة بعد أن استمرت في عقدها للقروض حتى عجزت الدولة عن سداد

(١) عبد الكريم غرايبة : سورية في القرن التاسع عشر ص ٣٥ .

الديون المستحقة عليها في مواعييدها . وأعلن في السادس من أكتوبر سنة ١٨٧٥ عن إفلاس الدولة العثمانية . وبأشرت الدول الأوروبية الى التدخل حفاظا على حقوق دائنيها . فتشكل مجلس للدين العام ضم ممثلين عن بريطانيا وفرنسا والنمسا وإيطاليا وألمانيا والدولة العثمانية . ويذكر المؤرخون أن السلطان عبد العزيز كان ينفق من هذه القروض على ملذاته الخاصة وأنه تورط في الديون بشكل كبير شأنه شأن الخديو اسماعيل . وزار عبد العزيز مصر سنة ١٨٦٣ وكان أول سلطان عثماني يزورها بعد فتحها على عهد السلطان سليم . كما زار باريس سنة ١٨٦٧ وأقام القصور الضخمة ثم كان ان اشتعلت نيران الثورة البلغارية في أول مايو ١٨٧٦ وتعرض المسلمون فيها لمذابح أثارت طلاب المدارس الدينية في اسطنبول الذين قاموا بمظاهرات ضد السلطان وانتهى الأمر بأن اعتبر السلطان عبد العزيز مسئولا عن الضعف المالي والعسكري الذي عانت منه الدولة العثمانية فصدرت فتوى من شيخ الاسلام بخلعه وانتهت حياته بانتحاره بعد ذلك (١) . وخلفه السلطان مراد الخامس بن عبد الحميد في ٣٠ مارس ١٨٧٦ لكن سوء صحته واضطراب أعصابه ومرضه بالصرع بدت واضحة على تصرفاته حتى تقرر عدم صلاحيته للحكم فخلع وبويع أخوه عبد الحميد بإسم السلطان عبد الحميد الثاني .

وهكذا كانت حالة الدولة العثمانية في سنة ١٨٧٦ (وهو العام الذي تولى فيه السلطان عبد الحميد الحكم) سيئة للغاية والموقف فيها متدهور بشكل واضح .

وحين نتناول بالحديث عهد السلطان عبد الحميد الثاني ينبغي أن نتناول ذلك بالدراسة المسهبة ، ذلك أن الكواكبي عاش

الجزء الاكبر من عمره على عهد هذا السلطان . فلقد تولى عبد الحميد الحكم وقد بلغ الكواكبي من العمر - كما سيتضح ذلك عند تناولنا لترجمته - اثنين وعشرين عاما ، وظل السلطان عبد الحميد يحكم الدولة العثمانية مدة قاربت الثلث قرن . وتوفى الكواكبي قبل أن يخلع هذا السلطان من العرش سنة ١٩٠٩ اثر الثورة الشهيرة التي وقعت فى ذلك الحين والتي أعقبتها حكم جماعة الاتحاد والترقى للدولة العثمانية . ثم ان الكواكبي تصدى لاستبداد السلطان عبد الحميد بمثل ما لم يتصد له كاتب آخر فى زمانه وتحمل بسبب ذلك هجره لوطنه الى مصر التي كانت ملجأ الأحرار والمفكرين فى ذلك الحين . ونشر فيها (مصر) كتابه الذى أسماه « طبائع الاستبداد » والذى حمل فيه على الحكم المستبد ، وصدرت أوامر السلطان عبد الحميد بمنع الكتاب من الدخول الى بلاد الدولة العثمانية لما فيها من صيحات حرة ودعوة الى الثورة على الظلم والاستبداد . وبرغم ذلك تسربت نسخ منه خفية الى كثير من الناس فأحدثت دويا كبيرا وأثرا ملموسا فى البلاد العربية ، ومن هنا كان للكواكبي الدور الكبير فى اليقظة العربية الحديثة على نحو ما سنتناوله فيما بعد عندما يحين موضع ذلك من هذا الكتاب .

جاء السلطان عبد الحميد الى الحكم بعد خلع أخيه السلطان مراد الخامس . وكان الاخير قد تولى الحكم بعد خلع عمه السلطان عبد العزيز . لكنه نظرا لما اتضح من مرض مراد الخامس وتأثير ذلك على تصرفاته أقدمت الجماعة المستنيرة التى تزعمت حركة الإصلاح فى الدولة العثمانية - على خله . وكان يتزعم هذه الحركة مدحت باشا . ولد مدحت باشا فى القسطنطينية سنة ١٨٢٢ وتولى مناصب ادارية مختلفة فى الدولة الى أن أن أصبح واليا على بلغاريا وله من العمر أربعون عاما ، ثم تولى ولاية بغداد عام ١٨٦٨ وأظهر نشاطا وكفاءة ووطنية وسعة أفق لم يظهرها كثيرون غيره من أبناء الدولة .

كان مدحت باشا شأنه شأن الشباب التركي المثقف المشبع بروح الثقافة الغربية يرى ان اصلاح الدولة العثمانية يكمن فى وجود جهاز برلمانى يستند الى دستور مكتوب يلتزم به السلطان وكانت المشكلة ان السلاطين لم يكونوا يشعرون بضرورة الاصلاح الا عندما تدفعهم الاهوال وتحقق الأخطار بالدولة العثمانية من كل جانب . عندئذ يصدرن فرمانات الاصلاح مبتغين بها اقناع الدول الأوروبية أنهم بسبيل اتخاذ العديد من وجوه الاصلاح شئون الدولة ، فاذا ما زال الخطر نفضوا أيديهم عن هذه الاصلاحات وساعدهم على ذلك وجود الفئات الرجعية من العلماء وغيرهم الذين كانوا يقفون لكل حركة اصلاحية بالمرصاد . وبرغم أن كثيرا من هؤلاء المستنيرين الاتراك ودعاة الاصلاح وجدوا استحالة بقائهم فى داخل أراضى الدولة العثمانية خشية القبض عليهم أو اغتيالهم ، فان عددا منهم بقى يعمل وينظم حركات المقاومة والتصدى للاستبداد . وكان على رأس هؤلاء مدحت باشا . استدعاه السلطان عبد العزيز ليتولى منصب الصدر الاعظم فى يوليو ١٨٧٢ بعد أن أهدقت الاخطار بالدولة العثمانية ، ذلك ان مدحت كان شخصية يحترمها المسئولون الأوروبيون والمسكرون لدفة السياسة الأوروبية فى ذلك الحين . كان مدحت يحلم بامبراطورية لا يكون فيها تمييز بين مسلم ومسيحى وانما الكل رعايا عثمانيون . وكان بفكره هذا سابق لفكر غيره من الأحرار ، كذلك كان رأيه شأن دعاة الاصلاح غيره . ان أول خطوة لاصلاح أمور الدولة العثمانية هو الحد من نفوذ السلطان (١) .

ولما وجد مدحت استحالة العمل مع السلطان عبد العزيز لم يجد بدا من الاستقالة التى قبلها السلطان على الفور . وكان معنى قبول السلطان عبد العزيز لاستقالته أنه لا يريد أن يساير الركب

التحررى فى الدولة وأنه جاء بمدحت لفترة مستهدفا من وراء ذلك اقناع الدول الاوربية بالكف عن التدخل فى شئون الدولة العثمانية وعلى اثر استقالة مدحت قدم بعض الاحرار المؤيدين لمدحت فى سياسته مذكرة فى التاسع من مارس ١٨٧٦ الى ساسة أوروبا . وألقت المذكرة اللوم على السلطان . وقالت المذكرة أنه لو أنه بدلا من أن تكون أمور الدولة رهن تصرف السلطان كانت هناك حكومة صالحة تحكم فى تركيا ، لما كانت هناك مشكلة ما خاصة بجنس أو بدين . ولو أنه بدلا من ان يحكمنا طاغية يعتبر نفسه ممثل الله فى أرضه فيحكمنا حاكم صالح معه مجلس نيابى يضم ممثلين لكل جنس ودين لبلغت تركيا دون صعوبة ما هى جديرة به بالنسبة لأرضها وشعبها (١) .

وتطورت الامور بسرعة فقد بانث الحاجة الى اصلاح جذرى وفعال شجع دعاة الاصلاح ان مراد ابن أخى السلطان عبد العزيز كان يدعو للاصلاح ويطالب بالحياة الدستورية . وحاول السلطان عبد العزيز ان يكسب الاحرار الى جانبه ، ويحقق مطالب طلبة الشريعة الاسلامية من طرد الصدر الاعظم محمود نديم باشا صاحب السمعة السيئة والمجىء بمدحت باشا محله . فعزل السلطان نديم باشا لكنه عين محله رشدى باشا بدلا من المجيىء بمدحت . عندئذ تجمعت القوى المعارضة للسلطان وأجمعوا على ضرورة خلعه . وتم ذلك فى الثلاثين من مايو سنة ١٨٧٦ وتولى عملية اعتقاله والقبض عليه سليمان حسنى باشا الذى أصبح فيما بعد مدير المدارس العسكرية . وجيىء بمراد سلطانا على الدولة العثمانية باسم مراد الخامس .

ووعد السلطان مراد الخامس ان يعلن دستورا للبلاد بمجرد أن تستتب الامور ووجه دعوة الى الأتراك الاحرار الذين فروا خارج

تركيا ان يعودوا اليها . وبرغم ان السلطان مراد بدت منه هذه الروح الاصلاحية فان الحاشية التي كانت تقف لكل حركة اصلاحية سرعان ما أحاطت بمراد وجعلته ينسى وعوده التي وعد بها . فجاء من يبلغ مدحت على لسان السلطان أنه لا يرغب في وجود مجلس نيابى » فأمطنا لم تبلغ بعد الوقت المناسب لذلك ، ويجب أن تتولى يد قوية زمام الأمور حتى تقضى على الاضطراب الذى يسود البلاد . »

وبدلا من أن يوقع السلطان مراد على مشروع فرمان الذى أعده مدحت والذى ينص على وجود حكومة دستورية ، أحدث السلطان تعديلا فيه فنص على احترام القوانين التى ينبغى أن ترعى مصالح كل السكان . وبإادر مدحت ينشر مشروعه الذى كان قد أعده والذى ينص على الحد من سلطة السلطان واستبدال الصدر الاعظم بمنصب رئيس للوزراء وايجاد مجلس للنواب الى غير ذلك مما عليه الدول الاخرى التى تحكم حكما دستوريا . وكان من شأن ذلك ان يزيد من سخط السلطان ولم ير دعاء الاصلاح بدا من التحرك . قابل مدحت أخا السلطان مراد يعرض عليه أن يتولى الحكم حتى يشفى السلطان من مرضه الذى بدا عليه . لكن عبد الحميد رفض على أساس أن القانون العثمانى لا يسمح بالوصاية . ومن ثم تقرر عزل مراد والمجىء بعبد الحميد سلطانا على الدولة العثمانية .

وقبل أن يعلن مدحت ذلك رسميا أراد أن يتجنب ما حدث على عهد أسلافه من السلاطين السابقين حين نكثوا بوعودهم فى الاصلاح . فطلب مدحت مقابلة عبد الحميد واستوثق منه رغبتة الجادة فى الاقدام على الاصلاح . اشترط مدحت على السلطان عبد الحميد ثلاثة شروط كى يجىء به الى الحكم . أولا ان يصدر دستورا دون تأخير ثانيا أنه كسلطان يتصرف فى مسائل الدولة بناء على استشارة الوزراء المسئولين ثالثا أن يعيد تعيين الرجال

الأحرار الذين عزلهم مراد مثل فايق كمال ويسعد الله بك وغيرهم ووافق عبد الحميد على كل ما اشترط عليه مدحت بل ان السلطان عبد الحميد قال أكثر من ذلك اننى لا أقبل الحكم الا على أساس دستورى استشارى .

وتولى السلطان عبد الحميد الحكم وظلت الأحداث التى مرت بها البلاد من قبل والتى أدت الى خلع اثنين من السلاطين من قبله (عبد العزيز ، مراد الخامس) تؤثر فى نفسيته تأثيرا عميقا وجعلته يخاف على عرشه وحياته . وحملته على اتخاذ سلسلة طويلة ومعقدة من التدابير أفضت الى استبداد لم تشهد الدولة العثمانية ومن بينها البلاد العربية له نظيرا من قبل .

ما كاد عبد الحميد يتولى عرش الدولة العثمانية حتى بدأت تصرفاته تناقض وعوده . لم يوافق على مشروع الفرمان الذى أعده مدحت فعدل فيه مثلما فعل السلطان مراد من قبل ثم بدأ يقرب ، اليه المستشارين والشخصيات التى عرفت بكرهها للإصلاح ولمدحت باشا ولدعاة الإصلاح لكن الموقف الخارجى بالنسبة للدولة العثمانية كان من شأنه أن يرغب السلطان على قبول مبادئ الإصلاح التى نادى بها مدحت ولو لفترة محدودة . وتفصيل ذلك ان الموقف فى البلقان تدهور بشكل ملحوظ نتيجة لازدياد ثورات الصرب والبوسنة والهرسك وتدخلت الدول الأوربية بعد أن بدأ الجيش التركى يسحق الصربيين فعرضت على السلطان قبوله هدنة غير رسمية من ١٦ - ٢٥ سبتمبر .

وفى اليوم التالى مباشرة (٢٦ سبتمبر) اجتمع السلطان مع العلماء والاعيان وكبار رجال الدولة وقادة الجيش لبحث معهم ما اذا كان يقبل مقترحات الدول الأوربية أو يرفضها والتى كانت تقضى بمنح الصرب والهرسك حكما ذاتيا وادخال العديد من الإصلاحات فى بلغاريا . وانتهز مدحت هذه الفرصة وأعلن للسلطان

ان اقدام الدولة العثمانية على الاعلان عن برنامج للاصلاح كفيل بتفويت الفرصة على الدول الاوربية للتدخل .

وبرغم كره السلطان عبد اثميد للاصلاح الا أنه لم يكن أمامه مفر من ذلك للحيلولة دون التدخل الأجنبي في البلاد . وتألفت على الفور لجنة لوضع الدستور عهد الى مدحت برئاسة . واذا كان عبد الحميد قد حرص أن يضم في اللجنة من يثق فيهم أو من يعتقد أنهم مخلصون له ، الا أن صوت الأحرار وآراءهم كانت هي الغالبة خاصة وان مدحت باشا كان رئيس هذه اللجنة . وليس معنى هذا ان مدحت لم تواجهه عقبات في هذه اللجنة التي بدأت عملها منذ السابع من أكتوبر ١٨٧٦ حتى أتمته في ٢٠ نوفمبر من نفس العام ، ذلك أن بعض علماء الدين الذين وافقوا على مضمون ان تضم اللجنة من يمثل المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية ، فانهم أصروا على وجهات نظر معينة تجاه موقفهم من غير المسلمين ولذلك فان مشروع الدستور مثلاً لم يشر الى حق المسيحيين في دخول الجيش ولا الأخذ بشهادتهم في المحاكم على قدم وساق مع المسلمين . كذلك لم يستطع مدحت النص في مشروع الدستور على قرار بإنشاء المدارس التي تجمع بين أبناء الدولة العثمانية بصرف النظر عن عقيدتهم الدينية . وما أن انتهت اللجنة من عملها حتى وجد مدحت أن بعض حاشية السلطان عبد الحميد قد أوعزت له ان مشروع الدستور ينتقص من سلطاته وبالتالي ينتقص من هيئته أمام الرأي العام . كذلك لم يؤخذ بوجهة نظر اللجنة التي أقرت استبدال وظيفة الصدر الاعظم برئيس للوزراء يكون من حقه اختيار الوزراء المسؤولين أمام مجلس النواب . وتعلل السلطان عبد الحميد في رفضه لبعض توصيات اللجنة أن هناك ثغرات في مشروع الدستور المقترح لا يتمشى مع عادات وتقاليدهم أمثنا .

وكان من المتوقع أن يؤجل السلطان عبد الحميد اعلان

الدستور برمته لولا ان الحوادث الخارجية تطورت بسرعة . فلقد استؤنفت الحرب في البلقان بعد انتهاء الهدنة التي فرضتها الدول الاوربية . وفي ٣١ أكتوبر ١٨٧٦ قدمت روسيا انذارا للباب العالي تطلب وقف الحرب خلال ثمان وأربعين ساعة واعلان هدنة مدتها شهرين . ولما كان الباب العالي غير مستعد لمجابهة روسيا فقد أعلن قبوله لمطالبها في اليوم التالي . ولما كانت بريطانيا لا تريد أن تترك زمام المبادرة لروسيا فقد أرسل وزير خارجيتها لورد دربي منشورا للدول الأخرى وللباب العالي يطلب عقد مؤتمر لوضع حل حاسم للمسألة الشرقية . وقبلت الدول ومعها الباب العالي ذلك . واختيرت الاستانة مقرا للاجتماع . ولكن روسيا أصرت أن يجتمع مندوبو الدول أولا بدون حضور ممثل الباب العالي . وكان معنى ذلك ان الدول ستجتمع لتقرر ما تريد فرضه على الباب العالي لقبوله . ولم يكن أمام الباب العالي خيار فعليه أن يقبل ما تأمره به الدول . وكان رأى مدحت أنه بمبادرة السلطان باعلان الدستور وعزمه على الاصلاح يستطيع أن يحول بين الدول الأوربية وبين التدخل .

ومن هنا فقط ولسبب ذلك فحسب أعلن عبد الحميد موافقته على اعلان أول دستور للبلاد وأصدر فرمانا رسميا بذلك في ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦ .

ويسمى الأتراك العثمانيون الدستور باسم القانون الاساسي كما اتفق على تسميته العهد الدستوري بعهدالمشروطية الاولى تمييزا له عن المشروطية الثانية التي قررت سنة ١٩٠٨ اعادة العمل بالدستور حين أجبر السلطان عبد الحميد على ذلك من طرف جماعة الاتحاد والترقي .

وفرّح الناس في كل فج باعلان الدستور سنة ١٨٧٦ واعتقدوا ان عهدا مشرقا وضاء قد أشرق على الدولة العثمانية . وان

السلطان لم تصبح سلطته مطلقة بل مشروطة ومقيدة . وكان أهم ما تضمنه هذا الدستور (١) أنه غير من شكل الدولة فبعد أن كانت كل السلطات مركزة في يد السلطان كلمته هي القانون ليس لرعاياه من حق الاطاعة الا ما يأمر به السلطان أصبحت الدولة العثمانية بموجب هذا الدستور دولة ذات نظام دستوري برلماني وأصبح لرعايا الدولة العثمانية حق التمتع بالحريات والاشتراك في تشريع القوانين . فقد قرر الدستور وجود هيئة برلمانية تتكون من مجلس للشيوخ يسمى مجلس الاعيان ومجلس من النواب يسمى مجلس المبعوثان ، وأعطى لأعضائهما على غرار المجالس النيابية في أوربا بعض الامتيازات ، من ذلك مثلا لا يحق القبض عليهم الا بأوامر من مجلسيهما .

وكان أهم ما قرره الدستور الذي صدر سنة ١٨٧٦ ان الدولة العثمانية التي ظلت على مدى ثلاثة قرون تعترف برعاياها على أساس الجنس والدين واللغة أصبحت بموجب هذا الدستور تعترف ان الكل بدون تمييز بينهم مواطنون عثمانيون متساوون أمام القانون ولا يصح اتخاذ الدين وسيلة للتمييز بينهم .

وبرغم أن السلطان عبد الحميد أصر قبل اعلان الدستور ان تظل له كثير من السلطات فبقى من حقه أن ينفي من يشاء بحجة خطره على الامن ، واضطر مدحت للموافقة على ذلك اذ أن عبد الحميد هدد برفض الدستور برمته ما لم يوافق على ذلك . وكان من العجيب ان مدحت كان أول ضحية تعرضت للنفي بموجب هذه المادة بعد ان انقلب عبد الحميد ونكث على عقبيه وعطل الدستور

(١) لمن يشاء التفصيل في هذه الناحية يمكن الرجوع الى كتاب : Devereux

The First Ottoman Constitutional period, pp. 61-79.

وكذلك كتاب انطاكي عبد المسيح : نيل الاماني في الدستور العثماني .

وكان تخلص عبد الحميد من مدحت بداية للتخلص من النظام
الدستورى بأسره . فكان أن أصدر قرارا فى فبراير من العام التالى
(١٨٧٧) بنفى مدحت وذلك قبل اجتماع البرلمان الذى كان لمدحت
الفضل الأول فى وجوده . ولم يلبث أن أصدر فرمانا فى فبراير
من العام التالى (١٨٧٨) بتأجيل اجتماع مجلس النواب (المبعوثان)
وكانت تركيا فى ذلك الحين قد دخلت الحرب مع روسيا وخسرت
خسارة فادحة وأصبحت القوات الروسية قريبة من عاصمة الدولة
نفسها الأمر الذى أدى الى عقد مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨
بعد أن هددت انجلترا بالتصدي للغزو الروسى للدولة
العثمانية . طالب بعض النواب بالتحقيق فى أسباب الهزيمة
ومحاكمة المسؤولين . وخشى عبد الحميد ان يكون هو أحد ضحايا
نظام قبله على مضض . فبادر الى تعطيل الدستور وان لم يلغه
رسميا . فلقد استطاع عبد الحميد الذى كان من أدهى السلاطين
أن يبدو بذلك وكأنه الحريص على الدستور لكن الظروف الخارجية
هى التى تحول دون العمل به . واستطاع بهذه الوسيلة أن يتخلص
من النظام الدستورى مدة ثلاثين عاما متصلة تقريبا حتى أجبرته
ثورة سنة ١٩٠٨ على إعادة العمل به .

وعادت الدولة العثمانية الى نظام استبدادى فريد فى نوعه
وهو النظام الذى تصدى الكواكبي لمحاربته والتنديد به وأوقف
قلمه وبيانه دفاعا عن الحرية التى أهدرت على عهد هذا السلطان
واذا كانت الدولة العثمانية قد عادت الى نظام الحكم المطلق ، إلا أن
هذا النظام لم يبق على حالته السابقة بل أخذ يشتد ويقوى شيئا
فشيئا حتى تحول آخر الأمر الى حكم استبدادى فظيع لم تشهد
الدولة العثمانية له مثيلا من قبل . وفرض السلطان عبد الحميد
نظاما كبيرا ودقيقا من التجسس والرقابة على الصحف والمطبوعات
وتفنن الجواسيس فى عملهم وكثر عددهم وكانوا يعرفون باسم

الخفية لأنهم يتجسسون على الناس خفية (١) . وكان تقارير هؤلاء الجواسيس كافية لاعتقال الكثير من الأشخاص والزج بهم فى السجون ليشهدوا فيها أشد أنواع التعذيب وكثيرا ما كان يتبع ذلك النفى خارج البلاد . واهتم السلطان عبد الحميد بالصحافة فكممها وجعل كل كلمة تقال تنشر أو تكتب تعرض على الرقيب الدائم وكذلك كان الحال بالنسبة للكتب وكل أنواع المطبوعات ، فكان يتحتم على كل مؤلف أو كاتب أن يرسل مسودات كتابه أو مقاله الى لجنة تسمى لجنة تدقيق المؤلفات ليحصل منها على رخصة خطية لما يريد طبعه . وكثيرا ما كانت أعمال هذه اللجنة ومراجعتها للكتاب أو المقال يستغرق شهورا عدة ان لم تناهز السنة الكاملة وكان المراقبون والمدققون يغالون فى البحث والتدقيق مغالة شديدة لأنهم كانوا يحسبون حسابا لأبعد الاحتمالات وأغرب التأويلات وكثيرا ما عطلت صحف وصودرت كتب فى هذه الفترة (٢) كما فسد جهاز الدولة فلم تعد الاستقامة أو الكفاءة سبيلا الى الترقى بل أصبح التملق والنفاق هو السبيل الى الوصول الى كراسى الحكم وساءت حالة الدولة المالية فازدادت نفقات السلطان وزادت مصروفاته على شبكة الجاسوسية ، كل هذا مع زيادة عدد رجال القصر ومرافقى السلطان . وهكذا أدى الاستبداد الحميدى الى استئثار الفساد فى جميع الامور والميادين .

ومضت الدولة العثمانية فى حالة سيئة من التدهور والانحطاط ففقدت الكثير من ممتلكاتها فاحتلت فرنسا تونس (١٨٨١) وخضعت مصر للاحتلال البريطانى (١٨٨٢) وحاولت الدولة العثمانية اخضاع اليمن والقضاء على ثوراتها فعجزت كما انحسر الحكم العثمانى فى الخليج العربى عن منطقة الاحساء

(١) ساطع الحصرى البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٠٠

(٢) المرجع السابق ص ١٠١

وتنازع آل سعود وآل شمر في امارتي نجد وشمر السلطة وأخذوا
يديران حروبهما وشئونهما دون الالتفات الى ما كان يدعيه الترك
من حق السيادة (١) .

ولقد أشار الكواكبي لهذه الحالة السيئة التي بلغتها الدولة
العثمانية على عهد السلطان عبد الحميد في كتابه أم القربى فقال
انه في العشرين سنة الأخيرة (السابقة على تأليفه كتابه) وهي
السنوات التي حكم فيها عبد الحميد البلاد « ضاع ثلثا المملكة
وضرب الثلث الباقي وأشرف على الضياع لفقد لرجال وصرف
حضرة السلطان قوة سلطنته كلها في سبيل حفظ ذاته الشريفة وفي
سبيل الاصرار على سياسة الانفراد » (٢) .

حاول عبد الحميد أن يسخر قوة الدين لغاياته السياسية
وأراد أن يكسب المسلمين كقوة تسانده أمام الخطر الاوربي ، ولهذا
نجدته كلما اشتدت الاخطار المحيطة بالدولة العثمانية لجأ عبد الحميد
الى تأكيد حقوقه كخليفة للمسلمين . فقد كان يرمى الى تدعيم
سلطته الزمنية في الدولة العثمانية بالتأكيد على حقوقه كخليفة
للمسلمين . ومن المعروف ان السلاطين العثمانيين أضفوا على أنفسهم
لقب خلفاء المسلمين منذ تم فتح مصر على يد العثمانيين ورددوا أن
الخليفة المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين في مصر تنازل عن
الخلافة للسلطان سليم الثاني ، وبهذه الصورة انتقلت الخلافة
الاسلامية من العباسيين الى العثمانيين وبرغم تواتر هذا القول فان
الأبحاث التاريخية لا تؤيدها ولا تدعمها كتابات المؤرخين المعاصرين
للفتح العثماني لمصر (٣) .

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب (مترجم) ص ٦٧

(٢) الكواكبي : أم القرى ص ١٤٢ طبعة المكتبة التجارية سنة ١٩٣١

(٣) ارجع لتفصيل هذه النقطة في ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة =

ومن المعلوم أنه بقدر استفادة العثمانيين من توليهم منصب الخلافة الاسلامي في اخضاع الشعوب العربية لهم واستسلام العرب لهم ، الأمر الذي أخر كثيرا باليقظة العربية ، فان السلطان العثماني أصبح مع ضعف الدولة العثمانية وترديها في هاوية الضعف والانحطاط - في حاجة الى توكيد صفته كخليفة للمسلمين . وكان السلطان عبد الحميد هو أكثر السلاطين العثمانيين اهتماما بذلك وحرصا عليه . فقد كانت خطته ترمى الى اعادة الخلافة الى مكانتها اللائقة بها واقناع الرأي العام الاسلامي بأنها والسلطنة شيء واحد فاذا ما استعادت الخلافة اعتبارها بهذا الشكل عمد الى تسخيرها لتكون دعامة ثم قوة دافعة لتحقيق أغراضه السياسية (١) .

ومن ثم رسم عبد الحميد لنفسه سياستين داخلية وأخرى خارجية ، فقد سعى من داخل الدولة العثمانية الى تحقيق مركز السلطان في أذهان رعاياه المسلمين بضربه على الوتر الحساس وهو الدين وأصر على أن سلطته الزمنية تستند الى سلطته الدينية التي تسبغ عليه رداء قدسيا . فهو ظل الله على الارض وأمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين وجامي الدين الاسلامي . . الى غير ذلك من الالقاب التي أراد بها أن يعطى بها نفسه هالة كبيرة .

وقد حمل الكواكبي في عنف على هذه الالقاب التي أضفها السلاطين العثمانيون على أنفسهم فهو يقول :

« وهؤلاء الغشاشون يغرون حضرة السلطان على هذه الدعاوى بما يهرفون به عليه وبما يؤلفونه هم وأعوانهم من الكتب والرسائل

= العثمانية ص ٤٣ وفيه يورد كثيرا من الاسانيد لهذه النقطة منها عدم اشارة المؤرخ ابن اياس لها لا في صغيرة ولا في كبيرة برغم سرده للفتح العثماني لمصر بالتفصيل .

انطونيوس : يقظة العرب ص ٦٧

التي يعززون بعضها لأنفسهم وبعضها لغيرهم من المنافقين أو لأسماء
يسمونها أو كتب يختلقونها فيجعلون تارة آل عثمان العظام
يتصلون نسبا بعثمان بن عفان رضى الله عنه وأخرى يرفعون نسبهم
الى أعلى قریش ويعطونهم حق الخلافة مرة بالفراغة من العباسيين
وأخرى بالاستحقاق والوراثة وآونة بالعهد وأخرى بالبيعة العامة
وحيثما بخدمة الحرمين الشريفين ووقتاً بحفظ المخلقات النبوية وكأن
هؤلاء الغشاشين يريدون بهذه الدسائس أن يجعلوا حضرة السلطان
نظيرهم دعى نسب كاذب كدعواهم لأنفسهم بالسيادة ومتسم مقام
موهوم كدعواهم الولاية والقبطانية فى أنفسهم وآبائهم وأجدادهم
فيحشون فى تلك المؤلفات انساباً انتحلوها لأنفسهم مقرونة بنسب
حضرة السلطان ويستطردون لحكايات كرامات لأجدادهم ملفقة
مخترعة لا يقدمها لهم أحد من المسلمين يدسونها بين حكايات وقائع
الخلفاء السلاطين .

« ومن المعلوم عند أهل الوقوف أن التلقب بالخلافة والامامة
الكبرى أو امارة المؤمنين فى آل عثمان العظام حدث فى عهد المرحوم
السلطان محمود حيث صار بعض وزرائه يخاطبونه بذلك أحيانا
تفننا فى الاجلال وغلوا فى التعظيم ، ثم توسع استعمال هذه الألقاب
فى عهد ابنه وحفيده الى أن بلغ ما بلغه اليوم بسعى أولئك
الغشاشين الذين يدفعون ويقودون حضرة السلطان الحالى (يقصد
الكواكبى السلطان عبد الحميد) للتنازل عن حقوق راسخة
سلطانية لأجل عنوان خلافة وهمية مقيدة فى وضعها بشرائط ثقيلة
لا تلائم أحوال الملك ومعرضة بطبعها للقلقلة والانتزاع والخطر
العظيم . . » (١)

(١) الكواكبى : أم القرى صفحات ٢٠٥ ، ٢٠٦ ط المكتبة التجارية سنة

كان السلطان عبد الحميد يريد بما يضيفه على نفسه من مهابة دينية أن يحد مما تعرضت له الدولة العثمانية على عهده فأصبحت مطمع الطامعين ، كما كان يرمى من وراء الدور الذى اتخذه لنفسه وهو دور الخليفة الورع ان يكسب ولاء المسلمين فى داخل مملكته وخارجها خاصة ملايين المسلمين المقيمين فى مناطق تابعة لبريطانيا وفرنسا وروسيا وهو أمر لو حققه يزيد مركزه قوة فى داخل دولته وفى الميدان الدولى .

وأظهر عبد الحميد فى تنفيذ مرامه مرونة لا ينضب معينها وفهما دقيقا لما تتطلب هذه السياسة فحرص على أن يظهر أمام الناس بمظهر التقى الورع وأحاط نفسه برهط من الفقهاء ورجال الدين الذين كان بعضهم يتمتع بشهرة واسعة ونفوذ كبير فعمد الى تسخيرهم للدعاية له بل انه أنشأ معهدا دينيا لتخريج الدعاة (١) . ومالبت أن بعث بجماعات كثيرة منهم الى أقصى أنحاء العالم الاسلامى ليبثوا الرعاية والدعوة بالولاء له كخليفة للمسلمين . وأخذ هؤلاء المتملقون له يصفون عليه من ألقاب القداسة والتبجيل ما لم يوصف بها غيره فهو الخاقان الاعظم وحامى الحرمين وسلطان البريد والبحرين وظل الله فى أرضه الى غير ذلك من الالقاب . وبلغ اهتمام السلطان عبد الحميد بذلك انه أراد استقلال موسم الحج للدعوة لنفسه وشرع يبذل المساعدات المالية بسخاء كبير للمدارس الدينية فى داخل المملكة وخارجها ، كما سخر الصحافة بدورها فأوجد المجلات التى أخذت على عاتقها السير بالدعوة بتوجيه منه .

وكانت أهم العناصر التى استهدف عبد الحميد كسبها الى جانبه هم العرب الخاضعين لحكمه ذلك أن جمهرة الترك المؤلفة أكثريتها من فلاحى الاناضول كانت بطبيعتها موالية للعرش بينما

(١) انطونيوس : يقظة العرب ص ٦٨

كان العرب وحب الحرية متأصل فى نفوسهم أقل خضوعا . ومما زاد فى خطورة الامر فى نظره أنهم أخذوا يظهرُونَ من التصرفات ما يشير الى تفتح الوعى القومى فى نفوسهم . ولهذا بذل عبد الحميد جهودا خاصة لكسب ودهم فشكل فرقة ممتازة من الجند العرب ضمها الى حرمه الخاص وبذل المبالغ الطائلة فى زخرفة المساجد فى مكة والمدينة وبيت المقدس . وفى الوقت نفسه كان عبد الحميد يلجأ الى الوسائل العنيفة كلما وجد ان سياسة الارضاء لا تؤتى ثمرتها المطلوبة . فقد أوفد عددا من الرسل المختارين ليجوبوا العالم العربى فى ثياب الوعاظ بينما كانت مهمتهم الحقيقية بذر بذور الشقاق أو تشجيعة بين كبار أمراء العرب واذكاء نار الخلافات القبلية أو المذهبية . كما سعى الى دعوة عدد منهم للإقامة فى الاستانة ليكونوا تحت مراقبته ، ومن هؤلاء الشريف الحسين شريف مكة . فقد كانت التقارير التى يتلقاها عبد الحميد من جواسيسه تشير الى نشاط كل أمير أو حاكم وميوله ودرجة ولائه للسلطان . وجاءت التقارير التى تلقاها عبد الحميد عن الحسن تنبئ بأنه شاب عنيد وأنه لا يصرح بما يجول فى فكره الا نادرا كما أنه (الشريف حسين) ذو نزعة استقلالية . ولذلك استدعاه السلطان عبد الحميد هو وأسرته الى الاستانة فوصلها عام ١٨٩٣ وهو لا يزال فى أوج شبابه . ورافق الشريف حسين أولاده الثلاثة على وعبد الله وفيصل وحرم عبد الحميد عليهم مغادرة الاستانة وظلوا كذلك معتقلين أكثر من خمس عشرة سنة حتى كانت الثورة التى أطاحت بعبد الحميد سنة ١٩٠٩ فأعادت تعيين الشريف حسين شريفا للملكة .

ومضى عبد الحميد فى سياسته التى ترمى الى احكام القبض على العرب فاستعان ببعض ذوى النفوس الضعيفة فقر بهم اليه ، ومن هؤلاء عزت باشا العابد وهو عربى من بلاد الشام استطاع أن ينال حظوة كبرى لدى السلطان عبد الحميد عن طريق الكيد والدس

وقضى فى خدمته ثلاثة عشر عاما . ولم تنته حظوته الا بسقوط
عبد الحميد . فلقد استطاع العابد أن يصل الى وظيفة سكرتير ثان
وان يصبح من خلال هذه الوظيفة أقوى موظف فى الدولة العثمانية
جاها ونفوذا . وكان السلطان وهو يقرب العابد اليه يرغب أن يستغل
دهاءه ومكره فى ابلاغه بكل التقارير والمعلومات عن نشاط بعض
العناصر العربية المتحررة والتي أخذت مع استبداد عبد الحميد
تزداد يوما بعد آخر .

ويرى بعض المؤرخين ان فكرة مد خط حديد الحجاز كانت
من بنات أفكار العابد باشا فقد أشار على السلطان عبد الحميد بمد
السكة الحديد من دمشق الى مكة المكرمة . وكان الهدف كما يبدو
أمام أعين العرب والمسلمين هو ظهور السلطان عبد الحميد بمظهر
السلطان المتدين الحريص على تمكين المسلمين من أداء شعائر الحج
ويستندون فى ذلك الى أن السلطان عبد الحميد أسند اليه رئاسة
اللجنة التى وجهت نداء الى العالم الاسلامى توضح الدوافع الدينية
« الحميدة » التى أوحى لعبد الحميد بصفته خليفة المسلمين لمد
الخط الحديدى . وطلبت اللجنة من المسلمين الاكتتاب لتغطية
نفقاته . ولاقى النداء قبولا حسنا وفى الوقت نفسه فرضت ضريبة
جديدة فى جميع أنحاء المملكة . وبدأ تشييد الخط على يد مهندسين
ألمان سنة ١٩٠٠ ووصل الخط الى المدينة سنة ١٩٠٨ ولم يمتد
بعد ذلك بسبب خلع السلطان عبد الحميد ورفض الشريف حسين
مد الخط من المدينة الى مكة المكرمة للخلاف الذى بدأ بينه وبين
جماعة الاتحاد والترقى الحاكمة .

ولم يكن ما أقدم عليه السلطان عبد الحميد من مد خط حديد
الحجاز عن ايمان واقتناع بقدر ما كان الغرض منه كسب ود الشعوب
الاسلامية عامة والولايات العربية التابعة له بصفة خاصة .

لكن كان هناك من أحرار العرب من كشف كل الاعيب السلطان
عبد الحميد وحيله ودهائه ورأى سياسته منكرًا يجب التصدي له
بالقول والعمل وكان علي رأس هؤلاء كاتبنا الكبير عبد الرحمن
الكواكبي .



مرکز تحقیقات کتاب و اسناد اسلامی

الفصل الثاني

مرطبي الكواكب ونشأته الأولى

ينبغي لمن يؤرخ لموطن الكواكبي أن يتناول بالدراسة سوريا بصفة عامة وحلب بصفة خاصة تحت حكم العثمانيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

من المعروف أن الحكم المصرى للشام (خلال عهد محمد على) قد أحدث تغييرات جوهرية واصلاحات جذرية مهدت السبيل كي تصبح هذه البلاد الارض الصالحة والبيئة المناسبة لبداية الحركة العربية فى عصرها الحديث . ورغم قصر العهد المصرى بالنسبة للعهد العثمانى الطويل فى بلاد الشام فقد أرسيت فيه قواعد جديدة للحكم لم تكن معروفة من قبل ، اذ أنهى ابراهيم باشا عهد الحكم السطحي ، وبدأت الدولة التدخل فى شئون التعليم والقضاء والمواصلات والاحتساب والصحة العامة . كما ازدادت الدولة دقة وحزما فى تنفيذ قراراتها وسيطرت بشكل فعال على التجارة لا سيما التجارة الخارجية وتدخلت فى تنظيم الزراعة والصناعة وتوجيهها فى خدمة أغراض الدولة . ولم يعد التجنيد وجباية الاموال أمورا شكلية يمكن التهرب منها بالمقاومة أو بشئ من الرشوة . وأحس الشعب كله أثر هذه الاصلاحات لا سيما المسيحيين منهم . فلقد ألغى ابراهيم القيود المفروضة على أزيائهم المميزة وأباح للأفرنج دخول مدينة دمشق راكبين ، وسمح لهم بتأسيس قنصليات فيها ورفع أعلام تحمل شارة الصليب . كذلك اعتمد على كثير من المسيحيين أمثال بطرس كرامه وحنا

البحرى وعهد اليهم بادخال تنظيمات أفرنجية وترتيب مجالس ملكية ومدنية وعسكرية ونظامات حديثة (١) .

وساوى ابراهيم باشا بين جميع أفراد الشعب أمام القانون لا فرق فى ذلك بين مسيحي أو مسلم أو يهودى ولم تكن هذه المساواة موجودة من قبل ومن أهم ما أدخله ابراهيم باشا الى جانب العمل على توطيد سلطة الحكم المركزى والقضاء على سلطة الافراد والرؤساء الاقطاعيين أنه أخذ بمبدأ الشورى فى حكم البلاد فألف فى كل مدينة يزيد عدد سكانها على عشرين ألف نسمة مجلس يسمى (ديوان المشورة) يتراوح عدد أعضائه بين ١٢ ، ٢١ عضوا ينتخبون من بين نبهاء (أعيان) البلاد وتجارها . ومما لا ريب فيه أن هدف هذه المجالس كان خدمة الحكومة المركزية وتيسير مهمتها ومعاونتها فى تحصيل الاموال المطلوبة (الميرى) ، لكنها كانت بلا شك مقدمة على طريق تعويد الاهالى أسلوب الحكم الشورى (٢) .

وكان تعيين ابراهيم باشا لبعض السوريين فى هذه المناصب الكبيرة دليلا على حد اعتراف الكثير من المؤرخين والأوربيين منهم بوجه خاص على رغبته فى اسناد كبار المناصب الى ابناء البلاد وهو ما لم يكن مألوفا فى عهد الادارة التركية . فكتب لويس بلان فى كتابه (تاريخ عشر سنوات) ! يقول : اذا اردنا ان نعرف ما افادته سوريا من انتقالها من الحكم التركى الى حكم المصريين فما علينا الا أن نلقى نظرة على سهول انطاكية التى اكتست بأشجار الزيتون وضواحي بيروت التى كثرت فيها الكروم والنشاط الذى انبعث فى حلب ودمشق . صحيح ان محمد على أظهر قسوة فى حكم سوريا ، ولكن فى ظل هذا الاستبداد العارض الذى كان ضرورة ولزاما حيث

(١) غرايه عبد الكريم سورية فى القرن ١٩ ص ٥٨

(٢) الرافعى : عصر محمد على ص ٢٩٩

سادت الفوضى في تلك البلاد ، ألغت سوريا النظام
والعمران . » (١) .

فأكد بعض المؤرخين والرحالة الذين زاروا سورية في عهد
الحكم المصرى أنه اذا بقيت أعمال الأمن وبقي الأمن الذى بسطه فان
حالة البلاد ستتطور تطورا كبيرا . واعترف السوريون أنفسهم
والادباء والمؤرخون منهم بوجه خاص بذلك . فقد كتب سليمان
أبو عز الدين أحد أدباء سوريا فى كتابه «ابراهيم باشا فى سورية»
يقول : لابراهيم باشا فضل خاص فى السنتين الأولى بعد الفتح فى
ضبط الاحكام وشدة مراقبة الحكام واجراء العدل بين الاهلين .
وكان شديد الوطأة على المستخدمين الذين يحددون عن السبيل
القويم ، فعاقب كثيرا منهم بالطرد والضرب والحبس للاعتداء على
أهل انبلاد أو عدم النزاهة وغير ذلك مما يخرج عن جادة الاستقامة
فلو استمرت حكومة محمد على فى سوريا ناهجة هذا المنهج القويم
لمكنت قلوب الاهلين .

والأمر الذى لا شك فيه ان وجود الحكم المصرى فى سورية
قد مهد السبيل لنهضة علمية أدبية فقد سهل الطريق لقدم
الافرنج والمبشرين الذين بدأوا فى انشاء المدارس . فلقد فتحت
سياسة التسامح الدينى التى اتبعها ابراهيم باشا فى حكمه لبلاد
الشام الباب أمام بعثات التبشير المسيحية الغربية وخاصة البعثات
البروتستانتية الأمريكية والكاثوليكية الفرنسية . ومما لا شك
فيه ان جهود هؤلاء المبشرين فى فتح المدارس فى بلاد الشام كانت
أحد الأسباب الهامة التى جعلت بلاد الشام تشهد قبل غيرها من
البلاد يقظة عربية كانت بداية لحركة بعث كبيرة فى العصر
الحديث على نحو ما سنتناوله عند حديثنا عن دور الكواكبي فى
اليقظة العربية الحديثة .

ولقد أشاد الكواكبي نفسه بالنهضة التي أحدثها محمد علي وابنه ابراهيم وذلك في كتابه أم القرى فهو يقول « ٠٠٠ حتى ان النهضة العثمانية بكل فروعها مسبوقة في مصر ومقتبسة عنها بل كما يعلم العارفون انما تقدمت الدولة العلية العثمانية ببعض خطوات في ميدان المدنية والعمران مدفوعة بأيدي المرحومين محمد علي وابراهيم ٠٠٠ » (١) .

ثم كان أن انتهى الحكم المضرى للشام بموجب معاهدة لندن يوليو ١٨٤٠ حيث أجبر محمد علي على الانسحاب من سوريا والحجاز ونجد واليمن وسواحل الخليج العربى وتقلصت امبراطوريته الى حدود مصر والسودان .

وراود الأمل أولئك الذين ساءت لهم اصلاحات ابراهيم في سوريا ان الحكم العثماني سيكون كما عهدوه من قبل رخوا سهلا فاسدا ضعيفا غير محكم قبضته على المحكومين . لكن آمال هؤلاء خابت بعد أن أدخل العثمانيون تنظيمات تشبه التنظيمات المصرية دون أن يقضوا على القواعد القديمة خالقين بذلك ازدواجا في النظم . وحافظت الدولة العثمانية على التقسيمات والنظم الادارية التي كانت قائمة من قبل في سورية . فقد بقيت سورية مقسمة الى ولايتين رئيسيتين هما ولاية حلب ودمشق وظلت ولاية صيدا قائمة في أول الأمر ولكن جعلت بيروت عاصمة لها (٢) .

ثم نقصر الحديث على عهد العثمانيين ذلك أنها كانت موطن الكواكبي المكان الذي نشأ فيه وعاش زهرة أيامه به .

كانت ولاية حلب تمتد امتدادا كبيرا في المناطق التي أصبحت حاليا تابعة للجمهورية التركية . فقد كانت تتكون من ألوية ثلاثة

(١) الكواكبي : أم القرى ص ١٨٩ طبعة المكتبة التجارية سنة ١٩٣١

(٢) غرايه : سورية في القرن ١٩ ص ٥٨ وما بعدها .

لم يبق منها تابعا لسورية الا أجزاء من لواء واحد . وحرصت الدولة العثمانية ألا يستقر على حكم حلب أحد من الولاة لفترة طويلة فلقد حكمها ثلاثون واليا في مدة ثلاثين سنة وذلك منذ جلاء ابراهيم باشا بقواته عنها الى اعلان الدستور الأول على عهد السلطان عبد الحميد أى من سنة ١٨٤٠ - سنة ١٨٧٦ . بل بلغت مدة حكم بعضهم لحلب ستة أيام . وكان من شأن ذلك عدم الاستقرار وعدم حرص أحدهم على رفاهية الولاية أو العمل على ادخال أى نوع من الإصلاح فيها . وسكن مدينة حلب فى هذا العهد حوالى مائة ألف نسمة خمسهم من المسيحيين وثمانية ألف منهم من اليهود . كما عاش فيها عدد كبير من الافرنج ولعبت الطوائف المسيحية واليهودية دورا بارزا فى حياة حلب أكثر مما لعبوه فى دمشق . فقد سيطر يهودوها على عمليات الصرافة وأكثر التجارة الخارجية والصناعات . وكان أكثر القناصل منهم لا سيما من عائلة مركوبولى الذين كان منهم قناصل اسبانيا ودويلات ايطاليا . وكثيرا ما استثار هؤلاء اليهود المسلمين والمسيحيين لسيطرتهم على أمور القوافل التجارية وحملوهم على الاستراحة يوم السبت وتلاعبوا بأسعار النقد .

وانقسم المسيحيون فى حلب الى عدة طوائف كل واحدة برعاية أحد القناصل ، وقام القنصل الفرنسى برعاية المواردنة والروم الكاثوليك كما أقام الانجليز علاقات قوية مع الارثوذكس وتزوجوا منهم ودفنوا موتاهم فى مقابرهم بل أقام عدد من الانجليز فى حلب كعائلة باركر التى تزوج عدد من أفرادها من فتيات أرثوذكسيات . لكن النفوذ البريطانى لدى الانجليز أخذ يتقلص نوعا ما بعد أن برزت روسيا حامية للأرثوذكس . وأما مسلمو حلب فقد اشتهر عنهم عدم التعصب وحسن معاملتهم للغير مما جعل مدينتهم مركزا لنشاط الاجانب المسيحيين طوال العهد العثماني . وغدت مدينتهم ملجأ المضطهدين من المسيحيين حتى فاق عددهم

فيما بعد عدد سكان البلد الاصليين من المسلمين . ولكن أهل حلب الرحماء باخوانهم المسيحيين كانوا أشداء مع السلطات العثمانية فتحذوها أكثر من مرة . ومما ينبغي ذكره أن عام ١٨٥٠ شهد ثورة عارمة قام بها أهل حلب ضد السلطات العثمانية . وكان متسلم حلب واسمه عبد الله البابنسي الانكشاري الاصل قد شغل هذه الوظيفة ابان حكم ابراهيم باشا وبقي في منصبه خلال السنوات العشر الاولى من الفترة التي تلت انتهاء الحكم المصري لبلاد الشام . وكان ينافس عبد الله في منصبه يوسف باشا شريف زاده (من الأشراف) . وكان عبد الله ومنافسه من الشخصيات التي التزمت بجمع الاموال الاميرية دون أن يدفعها كل ما جمعا لخزانة الدولة وتراكت عليهما أموال كثيرة فطالبتهما الدولة بالدفع وهدد الوالى بمصادرة أملاكهما . ورأى الخصمان أن من مصلحتهما الاتفاق واثارة فتنة تجبر الوالى على تناسي الاموال المتأخرة وتدفعه الى الاعتماد عليهما وعلى أعوانهما لاختاد الفتنة . فأشاعوا بواسطة عملائهما أن الدولة عازمة على اتخاذ عدد من الاجراءات الجديدة من بينها تجنيد الشباب . وأدى ذلك الى ثورة على الدولة وهاجم بعض عامة الناس مقر الثكنة العسكرية . وعبثا حاول الوالى اخماد الفتنة وسارت الجموع خلال الليل الى بيوت الاعيان للانتقام منهم لأنهم لم يحاولوا حماية الشعب من ضرائب الحكومة . ونتيجة لذلك فر الاعيان ولجأوا الى الثكنة العسكرية ، ثم تلا ذلك أن قصد الناس الحى المسيحى ليأخذوا من المسيحيين مالا يشترون به أسلحة يجبرون بواسطتها الدولة على الغاء الضريبة والجندية (١) .

ولم يكن هدف ثوار حلب الاعتداء على المسيحيين ولكن زعماء الثورة اعتقدوا أن من صالح المسيحيين دفع هذه الاموال شأنهم

(١) كامل الغزى : نهر الذهب فى تاريخ حلب ج ٣ ص ٣٦٦ الفتنة المعروفة

بفومة حلب .

شأن المسلمين من أهالي حلب . ولكن فرار بطريرك الروم الكاثوليك من وجه الثوار والتجائه الى القناصل أثار الثوار ودفع ببعضهم الى الحى المسيحي يخرّبون . ثم كان أن تبادل الثوار الرسل مع الوالى الذى تظاهر بالاستجابة لمطالبهم وطلب ارسال رسل للمفاوضة . وما ان جاءت الرسل حتى اعتقلهم فى القلعة فأعلنت الثورة مرة ثانية وأطلق الثوار النار على القلعة فرد الجند باطلاق النار على الثوار الذين لم يستكينوا وجاءت جموع الأعراب الى حلب لتأييد الثورة . لكن نفاذ الذخيرة من يد الثوار مكن الجند من السيطرة على الموقف وقبض على زعماء الثورة ونفى عدد منهم .

وهذا يدل على أن أهل حلب اشتهروا بعدم الرضا والامتنان للاستكانة للضييم والرضا بالامر الواقع وعدم قبولهم لمساوىء الحكم العثماني ، فقد كانوا قوما أباة ثائرين لا يرضون بالاستبداد والتسلط الذى اشتهر به العثمانيون .

وكان من بين أبناء حلب الذى بزغ فيه فى الثورة على الضييم وعدم الرضا والمجاهرة بعدائه صاحب هذه الترجمة المرحوم عبد الرحمن الكواكبي .

نسبه :

يرى المؤرخون ان الكواكبي ينتهى نسبه الى على بن أبى طالب رضى الله عنه ويذكرون فى شجرة هذا النسب علمين من اردبيل (من أشهر مدن أذربيجان) هما صفى الدين الأردبيلي وصدر الدين الاردبيلي ويقولون ان من أحفاد الشيخ صفى الدين الاردبيلي رجلا يسمى (على سياه بوش) خرج الى بلاد الروم ولما وصل الى حلب بقى فيها وتزوج من حلبية ثم رجع الى بلاده ومن ذريته كان آل الكواكبي .

ويذكر المؤرخون كذلك ان نسب هذه الأسرة من جهة الأم يتصل بمحمد الباقر بن علي زين العابدين بن الامام الشهيد الحسين رضى الله عنه . .

ويقول المؤرخون ان أول من انتقل من هذه الأسرة الى حلب واستقر بها هو محمد أبو يحيى الكواكبي وأنه كان حدادا يعمل بالمسامير (وهى ما تسمى فى المعاجم وما يعرفها بعض الناس باسم الكواكب) ومن هنا عرف باسم الكواكبي واشتهر بتدينه وتقواه حتى كان الناس فى حلب تقبل عليه تلتمس منه الدعاء لها بقضاء الحاجات ودفن فى المسجد الذى أصبح يعرف بجامع الكواكبي وهو المسجد الذى ضم رفات آل الكواكبي من بعده .

أما أبوه فهو أحمد بهائى بن محمد بن مسعود الكواكبي اشتهر عنه غزارة علمه وسعة اطلاعه فقد تلقى تعليمه فى الجامع الأموى على شيوخ العصر فى حلب فى ذلك الحين حتى أصبح متفقهها فى دينه وصار من أجل ذلك أعظم علماء حلب فى العلوم الشرعية والفقهية وكان أدق علماء عصره فى حلب فى مسائل الفتوى وباقى العلوم الدينية . كان لا يقصده أحد فى حاجة الا قضاها له «مجا للصدقات الخفية كريم الطبع متفضلا على الاخوان والخلان ، مع أنه ربما مضى عليه الشهر وهو خال من النقود ، وقد استنيب فى قضاء حلب مدة بعد الحاج الوالى عليه ، ففرح به الناس وحسم أكثر دعاواهم صلحا برضا الطرفين . »

وعاش أحمد الكواكبي والد كاتبنا عبد الرحمن عيشة كلها تقوى وعلم وحب للخير واصلاح بين الناس حتى توفى سنة ١٨٨٢ ميلادية ودفن فى جامع الكواكبي وقد أنجب ولدين أكبرهما عبد الرحمن وأخوه مسعود الكواكبي الذى عمل عضوا بمجلس المبعوثين العثماني (النواب) ومحكمة التمييز بدمشق وعضوا فى المجمع العلمى العربى بدمشق .

مولده ونشأته الأولى :

يؤكد كثير من المؤرخين أن الكواكبي ولد سنة ١٨٤٨ ميلادية لكن ابنه الدكتور أسعد الكواكبي فى البحث الذى نشرته له مجلة الحديث بحلب سنة ١٩٥٢ ميلادية بمناسبة مرور خمسين عاما على وفاته يذكر أن والده قام بعملية تصحيح لسنة مولده سنة ١٨٤٨ حتى يصبح سنة مطابقا لما تتطلبه عملية الانتخابات فى حلب . والانتخابات التى يشير إليها الدكتور أسعد الكواكبي هى عملية انتخاب مجلس المبعوثين الذى تقرر اجراء الانتخابات بشأن اختيار أعضائه بموجب القانون الأساسى (الدستور) الذى أصدره السلطان عبد الحميد الثانى فى ٧ ذو الحجة سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) حيث اشترط بموجب المادة ٦٨ من هذا القانون ألا تقل سن المرشح لمجلس المبعوثين عن ثلاثين سنة .

لكننا لا نجد بالرجوع الى قوائم اعضاء مجلس النواب العثمانى الذى تم انتخابه على عهد السلطان عبد الحميد الثانى والذى عقد جلسته الأولى فى ١٩ مارس ١٨٧٧ اسم عبد الرحمن الكواكبي (١) . كذلك لا نجد فى ترجمة حياته ما يشير الى دخوله انتخابات هذا المجلس ، ولا نعرف السبب الذى من أجله أحجم الكواكبي عن خوض غمار هذه الانتخابات بعد أن قام بتصحيح سنة على حد قول ابنه أسعد الكواكبي . نعل السبب فى ذلك هو شعور السيد عبد الرحمن الكواكبي ان الحياة النيابية التى قررت الدولة العثمانية العمل بها على عهد السلطان عبد الحميد الثانى لم تكن عن اقتناع وإيمان من جانب المسئولين العثمانيين بقدر ما هى خطوة اتخذت لمواجهة أحداث خارجية طارئة واجهت الدولة العثمانية . وآية ذلك ان مدحت باشا (أبو الدستور وصاحب فكرته) نفى من البلاد العثمانية قبل ان يجتمع مجلس المبعوثين للمرة الأولى .

مصدرنا الرئيسى اذا فى تحديد تاريخ ميلاد عبد الرحمن الكواكبى هو ما ذكره ابنه أسعد حين ذكر ان والده ولد بحلب سنة ١٨٤٨ ميلادية .

وعندما بلغ عبد الرحمن الكواكبى السادسة من عمره توفيت أمه السيدة عفيفة بنت مسعود آل النقيب وكانت من أسرة رفيعة المقام . فقد شغل أبوها منصب مفتى انطاكية . وعلى اثر وفاتها كفله خالته السيدة صفية بنت مسعود النقيب حيث اقام معها فى انطاكية وكانت سيدة اشتهرت بنبوغها وذكائها ، علمته اللغة التركية ومبادئ القراءة والكتابة . ثم كان ان استدعاه والده ليقوم معه فى حلب حيث عنى بتعليمه العلوم العربية والتركية والفارسية . لكنه لم يلبث أن سافر مرة ثانية الى انطاكية سنة ١٢٨١هـ (١٨٦٤م) حيث تتلمذ على يد أستاذين فاضلين من أقاربه العلامة عبد الرحمن العلبى والسيد نجيب النقيب عم والدته . وكانت شهرتهما قد جاوزت الآفاق ، فقد عين الحديو توفيق السيد نجيب النقيب مربيا لابنه عباس حلمى .

لكن اقامة عبد الرحمن الكواكبى بانطاكية هذه المرة لم تطل ذلك أنها لم تتجاوز العام ، فعاد الى حلب ليقوم مرة أخرى مع والده وليحقه بالمدرسة الكواكبية .

وكانت احدى مآثر أجداد الكواكبى اقامتهم مدرسة لتعليم العلوم الشرعية سميت بالكواكبية نسبة اليهم .

عاد الكواكبى ليلتحق بهذه المدرسة التى كان أبوه آنذاك مديرها وأحد أساتذتها الأفاضل . فقد ذكر السيد كامل الغزى ان الشيخ أحمد (والد عبد الرحمن الكواكبى) كان من أجل علماء حلب فى العلوم الآليه وأدقهم نظرا فى مسائل الفتوى وباقى العلوم الدينية

تلقى تعليمه على يد والده الغزي . وفي المدرسة الكواكبية كان
الشيخ أحمد يلقي دروسه التي حضرها وتعلمنا عليه ابنه عبد الرحمن
فأجاد اللغة العربية والعلوم الشرعية . كما تلقى الكواكبي فيها
مبادئ العلوم الرياضية وغيرها من العلوم الحديثة وما أن بلغ
الكواكبي الثانية والعشرين من عمره حتى بدأ يكتب في جريدة الدولة
الرسمية في حلب وكانت تسمى فرات . وكان المؤرخ التركي أحمد
جودت باشا قد أسس هذه الجريدة سنة ١٨٦٧ م حين كان واليا على
حلب ، وجعلها بعنوان غدير الفرات وظلت سنتين تصدر بهذا
العنوان ، ثم حذفت كلمة غدير وأصبحت (فرات) فحسب تيمنا
بفيض النهر (نهر الفرات)(١) الذي عاش الحلبيون قرونا ينتظرون
قدومه اليهم . (١) وكانت هذه أول صحيفة اسبوعية تصدر في عاصمة
ولاية حلب ، هدفها نشر أخبار الولاية وأوامر الحكومة واعلاناتها .
وقامت مطبعتها التي كانت المطبعة الثانية بعد المطبعة المارونية بطبع
مطبوعات الحكومة المختلفة . ومن المرجح أن تكون معدات المطبعة قد
أرسلت من الأستانة هي وحروفها شأنها في ذلك شأن معظم المطابع
الرسمية التي انشئت في الولايات العثمانية . (٢)

وصدر العدد الأول من هذه الجريدة في ٢٣ من محرم ١٢٨٤هـ
الموافق ٢٧ مايو سنة ١٨٦٧ بإدارة جبرائيل برغود بالعربية
والتركية والارمنية ثم اقتصرت منذ العدد الواحد بعد المائة على
العربية والتركية فقط .

ظل الكواكبي يعمل فيها خمس سنوات ثم تركها سنة

(١) عبد الكريم غرايبه : سورية في القرن ١٩ ص ٢٤٨ وكذلك سامي
الدهان : الكواكبي ص ١٩

(٢) خليل صابات : تاريخ الطاعة في الشرق العربي ص ٩٨

١٨٧٨ (١) ليحرز في جريدة سماها الشهباء بالاشتراك مع
هاشم العطار (٢) .

وكانت هذه الصحيفة أول معلن اذاع بين الناس عبقرية
الكواكبي وكشف لهم ما كان عليه من المنزلة الرفيعة في عالم الأدب
والسياسة ولذا اغتبط الناس بهذه الصحيفة واقبلوا عليها أيما
اقبال « غير أنهم لسوء الحظ لم يتمتعوا باستجلاء محاسن هذه البكر
الوحيدة سوى أيام قليلة حتى فاجأها القدر بانقضاء الأجل » (٣) .

وكانت صحيفة الشهباء هذه اسبوعية شأنها شأن الفرات ،
لكن (الشهباء) امتازت بأنها أخذت تبث في الناس روح العزة
وتحيي منهم موات الأمل ، لكن والى حلب كامل القبرصى الذى أصبح
صدرا أعظم للدولة العثمانية فيما بعد ، كان يكره حريه الصحافة
فبادر الى تعليل هذه الصحيفة بعد ان بدأت تشير الى استبداد
السلطان عبد الحميد من طرف خفى . واستجاب الكواكبي لقرار
اغلاقها فعطلها بعد صدور ثلاثة أعداد منها (٤) .

لكن الروح الحرة التى تجسمت فى شخصية الكواكبي لا يمكن
أن تيبأس لأن اليأس ليس من شيم النفوس الأبية الصامدة فى وجه

(١) يقول الاستاذ كامل الغزى : نهر الذهب فى تاريخ حلب ج ٣ ص ٣٩٣
انه تولى أمر الترجمة لجريدة الفرات بعد أن تركها فقيد الوطن السيد الفاضل
عبد الرحمن أفندى الكواكبي وظل الغزى يتولى الترجمة من التركية الى العربية فى
هذه الجريدة مدة ٢٠ سنة بعد ترك الكواكبي لها .

(٢) يقول الاستاذ غرايبه (سوريا فى القرن ١٩) ان تاريخ صدور هذه
الجريدة ١٠ - ٥ - ١٨٧٧ ويؤكد ذلك فيليب دى طرازي بينما يذكر سامى
الدهان نقلا عن راغب الطباخ أن الكواكبي أنشأها سنة ١٨٧٨ م .

(٣) كامل الغزى : مجلة الحديث حلب ١٩٢٩ العدد السادس وتاريخ
ما أهمله التاريخ من سيرة عبد الرحمن الكواكبي بطل الحرية وفقيد الشرق
ص ٤٠٤ وما بعدها . .

(٤) عبد الكريم غرايبه : سورية فى القرن ١٩ ص ٢٤٨

الطغيان والاستبداد . فما كادت صحيفة الشهباء التي اصدرها الكواكبي تعطل ، حتى أصدر صاحب امتيازها غيرها سماها جريدة (الاعتدال) في ٢٠ يوليو ١٨٧٩ باللغتين العربية والتركية وفوض تحريرها للكواكبي (١) . وجعل الكواكبي أحد الأهداف الأساسية لهذه الصحيفة الكشف عن سيئات المأمورين (الموظفين) وعرض حاجات البلد وتوسيع دائرة المعارف (٢) .

لكن هذه الصحيفة التي اختلفت عن غيرها من الصحف فهي لا تكيل المديح للسلطان ولا تخلع عليه من الألقاب ما تخلعه غيرها من الصحف والتي تصدت للكشف عن سيئات الموظفين وتعريف الناس بحقوقهم ، كانت كفيفة أن تلقى من والى حلب جميل باشا ما لقيته الصحيفة السابقة (الشهباء) على يد سلفه كامل القبرصي . فعطلت الصحيفة الجديدة مثلما عطلت سابقتها ، فقد كان الكواكبي أول صحافي حلبى يحزر فى الصحف مقالات اجتماعية وبحوث فى شتى المجالات يختلف عما يكتبه غيره فى الصحف الأخرى التى اقتصرت ما احتوته على البيانات الرسمية أو البلاغات الحكومية .

وترك الكواكبي الكتابة فى الصحافة حينما ليتولى عددا من المناصب الادارية فقد عين من قبل فى ٩ مارس ١٨٧٩ عضوا فخريا فى لجنى المعارف والمالية بالولاية . ثم عين بعد عام عضوا فخريا كذلك فى الأشغال العامة كما تولى منصب مأمور للأجراء (رئيسا لقلم المحضرين) فى ولاية حلب ثم عضوا فخريا كذلك فى لجنة امتحان المحامين . وحين بلغ التاسعة والعشرين من عمره عينته الحكومة مديرا فخريا لمطبعة الولاية الرسمية فى حلب فى سنة ١٨٨١ ميلادية (١٣٩٧ هـ) ثم رئيسا فخريا للجنة الأشغال العامة ثم

(١) كامل الغزى : مجلة الحديث العدد السادس سنة ١٩٢٩

(٢) المصدر السابق ص ١٨٤

عصوا فى محكمة التجارة بولاية حلب بناء على أمر من وزارة العدل
العثمانية . وفى سنة ١٨٨٦ عاد الكواكبى ليشغل وظيفة مأمور
الأجراء وهى الوظيفة التى كان يشغلها من قبل .

وعرف عن الكواكبى فى كل وظائفه اننى تولاهما نزاهته وجديته
فى عمله واصراره على نصره الحق والحرص على مصالح الجماهير ايمانا
منه أن الموظف خادم للشعب وليس سيّدا على الناس . كما عرف
عن الكواكبى كرهه للنفاق والتصدى للاستبداد والعمل على دك
صروح الظلم وكان ذلك كله مفهوما جديدا غير مألوف لدى الجمهرة
الغالبية من الموظفين الذين كانوا يرون الوظيفة سبيلا الى جاه
وسؤدد . وحن الوقت الذى خشى فيه والى حلب (جميل باشا)
من الكواكبى وبدأ يراقب حركاته خاصة حين علم أن جميع ما تصدره
صحف الاستانة وبيروت من طعن فيه مستمد من قلم الكواكبى
وبايغاز منه . وحين انعدم التعاون بين الكواكبى ووالى حلب ، لم ير
الكواكبى بدا من الاستقالة من وظائفه مؤثرا أن يخدم الناس عن غير
طريق الوظيفة الحكومية .

ففى سنة ١٨٨٦ فتح انكواكبى مكتبا للمحاماة لكنه كان
متلقى لأصحاب الحاجات والمتظلمين والمساكين يسرون اليه بشكاواهم .
فالمعروف أن الكواكبى أحب البؤساء والضعفاء حتى لقب فى حلب
بأبى الضعفاء . وجاء فى جريدة الرائد المصرى أنه (الكواكبى) كان
له فى بلده مكتب للمحاماة يصرف فيه معظم نهاره لرؤية مصالح
الناس ويبعث الى المحاكم من يأمنهم من أصحابه ليدافعوا عن
المظلومين والمستضعفين . ومع تمسكه بالاسلامية والمطالبة بحقوقها
والاستهلاك فى سبيل نصرتها ، كان بعيدا عن التعصب يستأنس
بمجلسه المسلم والمسيحى واليهودى على السواء ، لأنه كان يرى
رابطة الوطن فوق كل رابطة . (١)

(١) مارون عبود : رواد النهضة الحديثة ص ٢٠٢

ومما لا شك فيه ان ممارسة الكواكبي لوظائف القضاء هي التي جعلت من حقه ممارسة المحاماة كما كان متبعاً في ذلك الحين فضلاً عن ان دراسته القانونية الواسعة التي اكتسبها بالمطالعة والخبرة والمران قد أفادته كثيراً في عمل كمحام فأصبح ناجحاً في هذا المجال . وقال السيد رشيد رضا في ذلك ان الفقيه (الكواكبي) درس قوانين الدولة درساً دقيقاً وكان محيطاً بها يكاد يكون حافظاً لها ، وله انتقاد عليها يدل على دقة نظره في علم الحقوق والشرائع ، ولهذا عينته الحكومة في لجنة امتحان المحامين ، ولا أعلم أنه برز في فن أو علم مخصوص فاق فيه الأقران ، ولكنه تلقى ماتلقاه من كل فن بفهم وعقل بحيث اذا أراد الاشتغال عملاً وتأليفاً أو تعليمًا يتسنى له أن ينفع نفعاً لا ينتظر من الذين صرفوا أعمارهم ٠٠٠ على أن الفقيه لا يتعلم شيئاً من علوم النفس والأخلاق والسياسة وطبائع الملل والفلسفة في مدرسة ، وإنما عمدته في هذه العلوم ما طالعه منها من المؤلفات والجرائد التركية والعربية « (١) وأصبح مكتب الكواكبي المحامي مقصداً للمتظلمين ومعتقداً ورجاءاً للمتظلمين . وكان من شأن ذلك أن يقض مضجع الوالي خاصة وأن الكواكبي أخذ يدل أصحاب الحاجات وأولئك الذين لم ينصفهم الوالي أو غبن حقوقهم - كيف يستردون حقوقهم منه وكيف يتصدون له مطالبين بحقوقهم المسلوقة . ومن ذلك تلك القضية المشهورة في ذلك الحين قضية ورثة مصطفى كخيا طلب الوالي منهم رشوة قدرها خمسة آلاف ليرة عثمانية ذهباً فامتنعوا عن دفعها فحرض الوالي الفلاحين المستأجرين لأرضهم عليهم ، ولجأ الورثة الى الكواكبي يسألونه الرأي فكان ان وقف معهم يسطر لهم ظلامتهم الى الباب العالي حتى ورد الأمر باطلاق سراح من كان الوالي قد اعتقله منهم . وقويت شوكة المتظلمين من الوالي بعد هذه

(١) قدرى قلجى : عبد الرحمن الكواكبي سلسلة أعلام الفكر العربى

الحادثة فكش عددهم وقصدوا الكواكبي الذى أصبح بالنسبة لهم ملجأ وملذا .

وكرت شكاوى الشاكين من الوالى والكواكبي يسطر لهم هذه الشكاوى بأسلوب بارع مثير حتى اضطر السلطان عبد الحميد الثانى برغم حبه للوالى أن يرسل مندوبا من طرفه للتحقيق فى تلك الشكاوى بغية استرضاء أهل حلب وكسب مودتهم للسلطنة العثمانية . وكان المندوب اسمه صاحب بك رئيس دائرة المحاكمات فى شورى الدولة وأصبح فيما بعد شيخا ناسلام . وقد وصل الى حلب ومعه لجنة من المحققين أقاموا فى حلب مدة تزيد على الشهرين ينظرون فى الشكاوى المقدمة من خصوم الوالى وكلها محررة بقلم الكواكبي . وكان السخط من جانب افراد الشعب فى حلب قد بلغ منتهاه ضد الوالى فتصادف اثناء وجود مندوب الباب العالى فى حلب ان اعتدى محام أرمنى على الوالى فى ساحة باب الفرج فى ١٦ صفر ١٣٠٤ هـ (الموافق منتصف نوفمبر ١٨٨٦ م) وذلك بأن اطلق عليه عيارا من مسدسه ولكنه أخطأ فقبض عليه وأرسل الى السجن وحكم عليه بالحبس مدة خمسة عشر عاما . وأرادها الوالى فرصة يتخلص فيها من أعدائه وفى مقدمتهم بطبيعة الحال عبد الرحمن الكواكبي فقبض عليه وأودعه السجن . ويقول السيد كامل الغزى فى شرحه لهذه الحادثة التى شغلت أذهان الناس فى ذلك الحين « ولكن صاحب بك مندوب الباب العالى أبرق الى الاستانة يقول « أنا عازم على الشخوص الى الاستانة لأننى لا أستطيع البقاء فى بلدة لا يعرف فيها نظام ولا قانون ، وأبرق محمد على باشا قائد الجندية (فى حلب) الى مقام الشيرية العسكرية يقول ما معناه أننى غير مسئول عما اذا حدث فى حلب ما يخل بالسلام لأننى لم يبق لى نفوذ على القوة العسكرية . » (١) .

(١) كامل الغزى مجلة الحديث العدد السادس ١٩٢٩ ويشرح الغزى كيف =

ولما اطلع السلطان على هاتين البرقيتين رأى ان الامر قد تفاقم فاصدر أمره بتنحية جميل باشا عن ولاية حلب وارسله وانيا على الحجاز وأفرج عن المسجونين وعين عثمان باشا الأعرج وكان مقعدا يحمل على كرسي ليصل الى مكتبه .

وما كاد الوالى الجديد يصل الى حلب حتى عين الكواكبي بعد برهة من الزمن رئيسا لبلديتها وكان مجلسها البلدى على حد قول كامل الغزى فى غاية الانحطاط وسوء الادارة . فتفتقت عبقرية الكواكبي عن عديد من وجوه الاصلاح المختلفة ، ومن ذلك أنه وضع حواجز على مدينة حلب تمنع الجمال المحملة بالبضائع من الدخول الى قلب المدينة وما كان يسببه دخولها من عدم نظافة الشوارع وازدحامها . كذلك فكر فى انشاء مرفأ للسويدية ومد خط حديدى منها الى حلب . كما قام بتجفيف المستنقعات المحيطة بها حتى يقضى على البعوض والأمراض التى يسببها . ومن أهم ما فكر فيه الكواكبي أثناء توليه رئيس بلدية حلب هو توليد الكهرباء من نهر العاص وذلك بواسطة شلال يحدثه من مياه النهر .

ثم تولى الكواكبي رئاسة غرفة التجارة والمصرف الزراعى فى حلب فأصلح شئونهما ووضع جداول احصائية تشهد على المامه الكبير بشئون الاقتصاد ومسائل العمران .

لكن الكواكبي تعرض قبل ذلك لأزمة ثانية انتهى الأمر فيها بسجنه مثلما سجن من قبل على عهد الوالى جميل باشا .

وذلك ان والى حلب نقل وجاء مكانه (سنة ١٣٠٧هـ) ١٨٩٠م عارف باشا « سماه أهل حلب (عارف صحيفة) لأنه أتخذ له من

= عومل الكواكبي معاملة سيئة فى السجن فحبس حبسا منفردا ووقف على باب غرفته جنديان مسلحان .

أعضاء مجلس إدارة الولاية وكبار موظفيها اصحابا يخرجون معه فى بعض أيام الأسبوع فى احدى متنزهات البلدية بقصد الترويح ويأتى كل واحد منهم بصحن فيه لون من الطعام لذيذ ولما كان الوالى يكثر من هذه الوليمة • فلقبه الحلبيون بعارف صحيفة « (١) »

ولما كان هذا الوالى فاسدا مرتشيا فقد تصدى له الكواكبى يتتبع سقطاته ويندد به فى صحف الاستانة وبيروت وصار الوالى ينتظر الفرصة المناسبة لينتقم فيها من الكواكبى •

وواتته هذه الفرصة حين حدث فى أحد الأيام ان كان قنصل ايطاليا بحلب وهو المسيو « أنريكو ويتو » وهو يمر فى محلة الجلوم أحد أحياء حلب حيث يسكن الكواكبى أن وقع على ظهره حجر صدمه صدمة عنيفة تألم منها وأرسل الى الوالى تقريرا بذلك يطلب منه البحث عن الضارب واجراء العقوبة القانونية وفتحت هذه الحادثة للوالى بابا يلج منه الى الصاق التهمة بالكواكبى لا سيما وقد كانت الحادثة بالقرب من مسكنه • ويمضى السيد كامل الغزى صديق الكواكبى ورفيقه يقص علينا خبر هذه الحادثة (٢) بالقول أن الوالى أوعز الى بعض شياطينه (يقصد جواسيسه وأعوانه) بأن يرفعوا اليه تقريرا ان الكواكبى منضم الى عصابة أرمنية وأنه أغرى بعض الناس فرشق على قنصل ايطاليا حجرة أصابت ظهره محاولا بذلك احداث فتنة بين الأرمن والمسلمين فى حلب وحالما قدمت هذه الاخبارية أمر الوالى رئيس الشرطة بالذهاب الى منزل السيد عبد الرحمن والدخول اليه قسرا وتفتيش مكتبه وخزانة أوراقه فتوجه رئيس الشرطة على الفور الى منزل الكواكبى وكان غائبا عنه فدخله قسرا ومعه طائفة من أتباعه وقصدوا خزانة كتبه وألقوا فيها

(١) كامل الغزى : مجلة الحديث العدد السادس سنة ١٩٢٩ تاريخ ما أهمله

التاريخ من سيرة الكواكبى •

(٢) المرجع السابق ص ٤٠٤ وما بعدها •

ورقة مزورة واستحضروها معهم وهي تركيبة العبارة محررة بحروف
أرمنية مضطربة التركيب يفهم منها ان أحد زعماء الارمن يعد السيد
عبد الرحمن بأنه عما قريب يقوم باحداث ثورة بين المسلمين وبين
الارمن في حلب . وقبض الشرطي على هذه الورقة وطار بها الى
الوالي فاستلمها منه وفي الحال أصدر أمره بالقاء القبض على
الكواكبي والزج به في السجن » .

وخرج الكواكبي من السجن ليحاكم أمام رئيس محكمة تم
الاتفاق بينه وبين الوالي على أن يصدر حكم الاعدام على الكواكبي
ونفذ كل ذلك وصدر الحكم بالاعدام على أن يكون قابلا للاستئناف
ثم التمييز . وتلقى الكواكبي الحكم برباطة جأش وثبات نفس
وشرع يطلب من المراجع العليا أن تكون محاكمته التمييزية في
عدلية بيروت لعداوة شخصية بينه وبين الوالي فأجيب الى طلبه
ونقل مع أوراق الدعوة الى محكمة بيروت واعتقل في سجنها .

يقول السيد كامل الغزي انه في هذه الأثناء أرسل له
الكواكبي يطلب منه الاتصال بقنصل ايطاليا في حلب لكي يكتب
لقنصل دولة ايطاليا في بيروت بأن الكواكبي لا دخل له في حادث
الاعتداء عليه . وكتب قنصل ايطاليا في حلب بذلك فقد كان على
علاقة ودية مع الغزي وكان على يقين بأن الكواكبي لا دخل له في
الحادث وليست من صفاته اتيان مثل هذه الأفعال . وكان القنصل
قد تحرى في ذلك الحين عن الحادث وعلم ان الحجر الذي أصابه
كانت مقذوفة بمقلاع أحد الاولاد وانتهى الامر بأن برأت محكمة
بيروت الكواكبي وعاد الى حلب ليمضي في التشهير بعارف باشا
حتى عزل عن حلب في شهر جمادى الثانية سنة ١٣١٠هـ (١)
ديسمبر ١٨٩٢ .

(١) كامل الغزي : مجلة الحديث ١٩٢٩ العدد السادس .

وبعد عزل عارف باشا من ولاية حلب عاد عثمان باشا
الاعرج الى ولايتها فعهد للكواكبي برئاسة غرفة التجارة والمصرف
الزراعي في حلب .

لكن الكواكبي آثر الاستقالة من وظائفه وسافر الى استانبول
(سنة ١٣١٢ هـ) ١٨٩٤ م بقصد السياحة فانزوى متنكرا في أحد
أماكنها لا يريد أن يعرفه أحد أو يتعرف عليه أحد وكأنه أراد أن
يلم بأحوال الامور بها حتى يصور الاستبداد وأهله عن تجربة والملم
وبصيرة أو كما يقول الغزى كأنه لم يقصد من هذه السياحة الا
أخذ الدروس في فن طبائع الاستبداد من مدرسته الكبرى قصر
البلاط السلطاني المعروف باسم (يلديز) فهو أعظم معهد تلقى
فيه دروس هذا الفن العظيم الذي جمع منه في كتابه طبائع
الاستبداد ما لم يجمعه أحد قبله ولا ينسج على منواله أحد بعده .

لكن الكواكبي ما كاد يصل الى الاستانة حتى كانت
الجواسيس المنبثة في كل مكان منها قد نقلت للسلطان عبد الحميد
الثاني وحاشيته خبر وصوله اليها . ويبدو أن السلطان عهد الى
أبي الهدى الصيادي باستضافة الكواكبي عنده . كان الصيادي
من حلب بلدة الكواكبي لكن ما أبعد الفرق بين الرجلين هذا متملق
منافق فقير في حربه ونسبه استطاع أن يتقرب الى السلطان
عبد الحميد حتى أصبح مستشاره الخاص وكان رقيقا على كل صوت
حر وهو (الصيادي) الذي أوعز الى عبد الحميد باستضافة
الافغانى عنده حتى يراقبه كما ألف فيه عبد الله النديم كتابا سماه
المسامير نعتة بأحط الصفات (١) كذلك انبرى الشيخ رشيد رضا
الى نقده وما ادعاه الصيادي من تمجيد لحسبه ونسبه بل فضل
نفسه على الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ احمد الرفاعي فألف

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص ٢٤٤

رشيد رضا كتابا سماه « كتاب الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية » وبعدها أزمع رشيد رضا على ترك الشام الى مصر حتى لا يتعرض لأذى أبى الهدى الصيادى المقرب من السلطان عبد الحميد الثانى .

كان لأبى الهدى الصيادى اذاً نفوذ كبير فى الاستانة يتصدى للرجال الأحرار أى أنه كان أداة السلطان عبد الحميد فى هذه الناحية ولذلك وبرغم ان الصيادى كان يكره الكواكبى فقد كان بين أسرتيهما عدااء شديد فى حلب لتطاول آل الصيادى على ادعاء حقهم فى نقابة الأشراف فى حلب بدلا من آل الكواكبى ، برغم ذلك استضاف الصيادى الكواكبى عند وصوله للاستانة . ومن ثم لم تطل اقامة الكواكبى بها فغادرها عائداً الى حلب .

وعندما عاد الكواكبى الى حلب أخذ ١٣١٣هـ (١٨٩٥م) التزام شركة للتبغ حيث فوضته الشركة فى كل ما يعمل . فأقبل الناس لتفتهم فيه على شراء تبغه لجودته ولأنه جعل ثمنه رخيصا . وكان الأمل أن يربح الكواكبى أرباحا طائلة من وراء ذلك . لكن السلطة القائمة فى حلب تصدت له فأوءزت الى بعض مثيرى الشغب باحداث فتنة نجم عنها مشاغبات ومذابح فكسدت بضاعة الدخان وخسر الكواكبى من هذا الالتزام . ثم كان أن عين الكواكبى فى سنة ١٨٩٤ م بناء على أمر من المشيخة الاسلامية الى قاضى حلب - فى وظيفة رئيس كتاب للمحكمة الشرعية فى حلب . فسرعان ما ظهرت وجوه الاصلاح فى هذه المحكمة فمنع اختلاط النساء بالرجال وجعل لكل مكانا ينتظر فيه دوره . ورتب الأوقات ونظم الدفاتر والسجلات وبقي فى هذه الوظيفة سنتين . لكن العاقلين عليه وفى مقدمتهم والى حلب كانوا له بالمرصاد ، فاتفق الوالى مع القاضى على تنحيته وعين مكانه كامل الغزى صديق الكواكبى وصفيه برضا الكواكبى نفسه .

وعهد الى الكواكبي بعدها برئاسة لجنة بيع الأراضي الأميرية
ثم رئيسا لغرفة التجارة في حلب . وكان الكواكبي كشأنه في كل
ما يسند اليه من أعمال نزيها مخلصا كفتاً يحرص على خدمة
الناس أكثر مما يحرص على خدمة الرؤساء على حساب الشعب ،
معتدا برأيه معتزاً بكرامته . فكان من الطبيعي أن يصطدم بأولئك
الذين كانوا ينظرون للوظيفة على أنها تكليف لا تشريف ليست
مجالاً للرشوة والاستغلال وجلب المال .

ولكن نفس الكواكبي ضاقت بهذا الجو الكئيب وبهذه الحرية
وقد رآها تحتضر ورأى الفساد وقد استشرى فأثر أن يغادرها الى
مكان ينعم فيه بحريته ، لأن الانسان على حد قوله يتجرأ أن يقول
في بلاد الحرية ما لا يتجرأ عليه في بلاد الاستبداد . بل ان بلاد
الحرية تولد في الذهن من الافكار والآراء ما لا يتولد في غيرها .

لكن الكواكبي كتم خبر سفره حتى عن أقرب المقربين اليه
وعن أخلص أصدقائه فأعلن أنه يزمع التوجه الى عاصمة الدولة
العثمانية ليحاول أن يستبدل نيابة راشيا بغيرها وكان شيخ
الاسلام قد عرض عليه نيابة قضاء راشيا فاستقلها وبقي في حلب
مدة . لكن الحقيقة أنه كان يعد العدة لرحيل لا عودة فيه الى مكان
يستطيع أن يرفع قلمه وصوته بالاصلاح . أعد الكواكبي العدة
للسفر الى مصر في طي من الكتمان ولم يفض به الى أحد .

ويقول كامل الغزي انه ذهب لتوديعه زاعماً له أنه مسافر الى
استانبول « وكنت عالماً بكتابه جمعية أم القرى وقد شعرت منه
العزم على طبعه . فوقع في نفسي أنه سيعرج على مصر لطبعه ونشره
اذ لا يمكنه أن يطبعه في غيرها وحذرت من ذلك وقلت له اياك
يا أخى والسفر الى مصر فانك متى دخلتها تعذر عليك الرجوع الى
وطنك لأنك تعد في الحال من الطائفة المعروفة باسم جون ترك (١) ،

(١) أي الطائفة المتعاونة مع الانجليز من الاتراك .

لا يتأخر وسمك بهذه السمة قيد لحظة ، لما اشتهرت به وعرفت به
من شدة المعارضة وانتقاد الاحوال الحاضرة فقال (أى الكواكبي)
لم أعزم الا على السفر الى استانبول للغرض الذى ذكرته لك . ثم
ودعنى ومضى وأنا أسأل الله أن يرعاه بعين رعايته وأن يجعل
التوفيق رائده والنجاح مرشده وقائده . وكانت مبارحته حلب فى
أوائل سنة ١٣١٦ هـ (١) (الموافق سنة ١٨٩٩ ميلادية) .



مركز بحوث ودراسات في العلوم الإسلامية

الفصل الثالث

القسم الثاني والأخير من حياة الكواكبي (الكواكبي في مصر)

برغم قصر المدة التي قضاها الكواكبي في مصر والتي لم تتجاوز الأربع السنوات فقد جاءها سنة ١٨٩٩ وتوفي بها سنة ١٩٠٢ ميلادية ، الا أننا رأينا أن نفرّد لها فصلا خاصا ذلك أنها على قصرها كانت أهم فترة في حياة الدارس لشخصية الكواكبي . ففيها رفع القلم مجاهرا بسقوط الاستبداد الذي فرضه السلطان عبد الحميد الثاني على البلاد وهاجم العثمانيين وسياستهم في الحكم وفيها نشر كتابه أم القرى الذي أحدث دويا هائلا ولعب دورا كبيرا في حركة اليقظة العربية على نحو ما سنذكره عند حديثنا عنه . كما جمع مقالاته المتفرقة التي كتبها عن الاستبداد في كتابه الذي سماه طبائع الاستبداد .

كانت مصر في الوقت الذي جاءها فيه الكواكبي ملتقى هاما لدعاة التحرر وزعماء الفكر الحر الذين ضاقت بهم بلادهم على عهد السلطان عبد الحميد الثاني . فلقد رأوا أن الاستبداد الذي فرضه هذا السلطان قد أفسد صفات النفوس وضيع أخلاقها فأصبح النفاق والتملق من سمات هذه النفوس . فلقد سد هذا السلطان على الناس أنفاس الحرية وخنق ارادتهم ليستعلي سلطانه وعظم بين هؤلاء الضعاف شأنه فزلت نفوسهم وركبها التزلف والتقرب ، واذا وصلت النفوس الى هذا الدرك الأسفل انهضت قواعد الأخلاق واختلت الموازين فخاف البريء وأمن المسييء وتقدم الهازل وتأخر المجتهد وراجت الشعوذة . وصار المرء لا يأمن على عرضه وماله ودمه

لا يعرف كيف يهدر دمه ولا يدرى متى يسلب ماله ويهتك عرضه .
واذا خافت النفوس صغرت. واذا صغرت أصبحت تمثل الدعة
والهدوء وتنفر من الطموح والسمو وفى كل ذلك معنى انهيار
الأمة .

من أجل هذا كانت باريس والقاهرة الملتقيين الهامين للرجال
الأحرار الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد والذين بدأوا العمل
خارج أرض الدولة العثمانية لاسقاط صرح الظلم والاستبداد الذى
فرضه هذا السلطان على دولته التى كانت البلاد العربية خاصة
فى مشرقها تمثل أحد أجزائها الرئيسية .

ففى الوقت الذى تكونت فيه جمعية سرية ثورية فى
القسطنطينية من طلبة المدرسة الطبية العسكرية سنة ١٨٨٩ م
والتي اتخذت لنفسها هدفا هو العمل على عزل السلطان
عبد الحميد والتي انتشرت من مدرسة الطب الى بقية المدارس
العسكرية الأخرى فى عاصمة الدولة العثمانية ، كان نشاط
الأحرار فى المهجر على أشده وخاصة فى باريس حيث فر اليها عدد
من الأحرار العرب فى مقدمتهم خليل غانم وهو مسيحي عربى من
بيروت كان نائبا فى مجلس المبعوثين (النواب العثماني) سنة
١٨٧٨ م عن احدى مناطق سورية ، فلما عطل السلطان عبد الحميد
البرلمان فر الى أوروبا وإقام فى باريس حيث أسس جريدة تركيا
الفتاة La jeune Turquie بالاتفاق مع الأمير أمين أرسلان . ولم
يكتف خليل بذلك بل أخذ يكتب فى مختلف الصحف الفرنسية
خاصة جريدة (الديبا) Deba كتب فيها مقالات يهاجم حكم
السلطان عبد الحميد واستبداده علاوة على توليه ادارة جريدة فرانس
انترناسيونال France International (١) ومن العرب الذين

(١) توفيق على برو : العرب والترك فى العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨-

لجأوا الى باريس كذلك أحمد رضا الذى وصل الى باريس ١٨٨٩
ويعتبر أحمد رضا من أكبر اعلام حركة المقاومة ضد السلطان
عبد الحميد تلقى تعليمه فى أوروبا وبعضه فى فرنسا وكان يجيد
الفرنسية اعادة تامة . وكان قد شغل بعض الوقت مديرا للتعليم
فى ولاية بروسة ثم غادرها الى أوروبا ليعمل مع زملائه الأحرار
حيث اشترك مع خليل غانم فى اصدار جريدة (مورث) . وقد
افزعت هذه الصحيفة السلطان عبد الحميد فأوعز الى سفارته فى
باريس سنة ١٨٩٧ م أن تقيم دعوى باسمه لدى محكمة السين على
أحمد رضا و خليل غانم وكانت هذه الصحيفة قد حملت فى اعدادها
من الصفات والنعوت هجاء لاذعا لهذا السلطان المستبد فوصفته
بأنه المخادع ، الجلاد ، السلطان الطاغية ، الدموى ، الظالم ،
المنحل ، بلية المسلمين ، الذئب الذى يتولى حراسة حظيرة الشياه
والسلطان الأحمر . وبرغم ذلك فان المحكمة لم تحكم على صاحب
الجريدة الا بغرامة ١٦ فرنكا وكانت غرامة مؤجلة التنفيذ ! وبررت
المحكمة حكمها بان مجازر السلطان عبد الحميد فى أرمنيا وخملات
الصحف الأوربية عليه كانت أحد الدوافع لحمل الصحفيين العرب
عليه ومن أجل هذا فان حكمها جاء حكما مخففا (١) .

وفى الوقت الذى كانت فيه باريس تمثل مركزا هاما من
مراكز تجمع الأحرار الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد
كانت مصر ملتقى الأحرار العرب خاصة الأشقاء السوريين الذين
أبوا أن يستكينوا للظيم أو أن يهادنوا الظلم والاستبداد . وكانت
الحال بسورية ولبنان فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر على
شيء من الهدوء والاستقرار ولكن على جانب كبير من الضنك
والضييق ، واذا عدنا القهقري الى السنوات العشر التى سبقت

منتصف القرن التاسع عشر وإلى السنوات العشر التي تلتها وجدنا لبنان ساحة دموية للثورة الأهلية بين الدروز والنصارى خاصة فتنة سنة ١٨٦٠ التي امتد لهيبها إلى سوريا وأسفرت الفتنة عن نظام جديد بلبنان هو نظام المتصرفية فرضته الدول الغربية عليه، لكنه (لبنان) لم ينج من عنجهية المتصرفين الأتراك ولا من قساد بعض هؤلاء المتصرفين وجشعهم في جمع المال من أي سبيل واشتهر من هؤلاء المتصرفين واصف باشا الذي قال فيه أحد الشعراء حين توفي :

قالوا قضي واصفا وواراه الثرى
فأجبتهم وأنا الخير بذاته

دنوا الفلوس على بلاط ضريحه
وأنا الكفيل لكم برد حياته

وأمام ظلم وفساد الحكم العثماني بدأت هجرة السوريين واللبنانيين . وكان من الطبيعي أن تكون مصر هي المهجر القريب الذي تطلعت إليه قلوب الشاميين فالحوار واللغة ووحدة العادات أهابت بالأحرار أن يفروا من ربقة الاستبداد العثماني إلى مكان آمن . ولم يكن هناك خير من في وادي النيل المكفولة فيه حرية القلم آنذاك (١) . ولقى النازحون من الشام إلى مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر أهلا بأهل وأخوانا بأخوان فشاركوا اخوانهم في مصر الحياة العامة وعاشوا أوفياء لمصر يحسون باحساسها وتخالج قلوبهم ألماها وأمالها ويعملون منها لاسقاط الحكم العثماني المستبد .

(١) عادل الغضبان : الشيخ نجيب الحداد ص ٨ سلسلة نواحي الفكر

العربي .

وكانت مصر فى ذلك خاضعة للاحتلال البريطانى ، والاحتلال يشجع كل حركة مناوئة للدولة العثمانية وتلقى منه ترحيبا وحاكم مصر الشاب آنذاك الخديو عباس حلمى الثانى ليس على وفاق مع السلطان فهو بدوره يقرب اليه الفارين من وجه السلطان عبد الحميد . تولى الخديو عباس حلمى الثانى الحكم بعد وفاة والده الخديو توفيق فى السابع من يناير سنة ١٨٩٢ واثارت مشكلة بسبب تعيينه ذلك انه كان قد ولد سنة ١٨٧٤ ولم يكن قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ومعنى ذلك انه لا يحق له تولى منصب الخديوية ولكن حلت المشكلة بالحساب الهجرى . وشهدت مصر فى هذه الفترة صراعا بين الانجليز يريدون أن تزداد قبضتهم على مصر وبين السلطان عبد الحميد يريد أن يثبت سلطانه على مصر كولاية تابعة له . وآخر السلطان عبد الحميد صدور فرمان الخاص بتعيين عباس حلمى خديويا للبلاد فقد كان يريد تعديل حدود مصر من جهة سيناء فطالب بأن تتخلى مصر عن العقبة لتركيا على أساس أنها كانت تابعة من قبل لولاية الحجاز وأعارتها تركيا لمصر على عهد اسماعيل . وقبل عباس حلمى ما طلبته تركيا حتى يحل مشكلة اصدار فرمانه لكن انجلترا رفضت ذلك وأصرت على صدور فرمان تعيينه على أن يتضمن فرمان اسناد ادارة شبه جزيرة سيناء الى الخديو طبقا لحدود مصر فى فرمانها الصادر لمحمد على سنة ١٨٤٠ وقبلت تركيا أخيرا وحلت الأزمة (١) . وفى ذلك الحين فترت العلاقة بين الخديو الجديد وسلطان الدولة العثمانية ولقى الأحرار العرب الذين جاءوا الى مصر كل ترحيب منه وتأييد .

وراودت الخديو عباس أحلام وآمال عريضه كشاب برتقى عرش مصر يحاول أن يؤكد سلطانه كخديو للبلاد فهو يريد أن

(١) عبد الرحمن الراعى : مصطفى كامل ص ٣١٤

يؤكد انفصال مصر عن تركيا بل راودنه فكرة أن ثلّول أمر خلافة المسلمين بدلا من السلطان العثماني . ومن أجل هذا أصبحت مصر مجالا لنشاط الأحرار الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد .

جاء الى مصر ابراهيم اليازجي (بن ناصيف اليازجي) ، وكان ابراهيم هذا هو أول صوت انبعث بالدعوة الى القومية العربية في الشام فهو صاحب القصيدة التي وصفها البعض بأنها مارسيلية العرب (أشبه بنشيد الثورة الفرنسية)

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طوى الخطب حتى غاصت الركب
أقداركم في عيون الترك نازلة
وحقكم بين أيدي الترك مفتصب
صبرا هيا أمة الترك التي ظلمت
دهرا فعمما قليل ترفع الحجب
لنطلبين بحد السيف مأربنا
فلن يخيب لنا في جنبه أرب

ولم يكن منتظر أن تطيب الإقامة لابراهيم اليازجي في بلاد الشام بعد هذه الصيحة المدوية فبادر بالهجرة الى مصر حيث أسهم في ميدان الصحافة بنصيب وافر وتوفى على أرضها سنة ١٩٠٦ (١) واقتفى أثر ابراهيم اليازجي شخصية سورية أخرى هو رفيق العظم ، الذي أبى الاستكانة لظلم العثمانيين وفي وطنه الشام فانضم الى الجمعيات السرية المناوئة لهم . ثم ضاقت نفسه بالجواسيس يحيطون به من كل جانب فهاجر الى مصر سنة ١٨٩٤ . كذلك

(١) عيسى ميخائيل سابا : ابراهيم اليازجي سلسلة نوابغ الفكر العربي ص ٤٩ وكذلك ارجع الى كتاب : العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ - ١٩١٤ لمؤلفه توفيق على برو ص ٢٧

سافر الى مصر شكيب ارسلان سنة ١٨٩٠ ليلحق باستاذ محمد عبده
فقد ذكر شكيب ارسلان في سنة ١٨٩٠ أول مقدمه الى مصر « كنت
بين العشرين والواحد والعشرين من العمر فمكثت سبعة أشهر في
الاسكندرية ثم جئت الى مصر ، وكان أكثر اجتماعنا في ذلك الوقت
باستاذنا الامام الشيخ محمد عبده وبرهظه المعدودين » . ثم ذكر
شكيب هذا الرهط وعدد أسماءهم فيهم سعد زغلول والشيخ
على يوسف صاحب المؤيد وكانت صحيفته مدرسة للحق والوطنية
والأدب ومنهم أحمد زكي باشا الذي أصبح شيخ العروبة في
تحقيقاته (١) .

وهكذا كانت مصر ملتقى للأحرار في ذلك الحين وتموج فيها
نهضة أدبية وثابة بفضل أعلام النهضة الأدبية في ذلك الحين وفي
مقدمتهم بطبيعة الحال الشيخ محمد عبده الذي عاد من منفاه في
بيروت سنة ١٨٨٨ وهو يحاول قدم استطاعته متابعة الإصلاح
قاصرا جهوده على الميدان الاجتماعي والثقافي تاركا الميدان
السياسي . ومن المعروف أن الكواكبي اتصل بالأستاذ الامام
محمد عبده وكان يجله ويصفه - على حد قول رشيد رضا - بأنه
(محمد عبده أعلم من أسناذه الأفغاني . وكان رشيد رضا يخالف
الكواكبي في هذا الرأي . وقال الكواكبي حين سأل الخديو عباس
حلمى عن رأيه في الشيخ محمد عبده قال ان أفريقيه أخرجت كثيرا
من العلماء والفلاسفة . الحكماء ثم أخرجت أخيرا حكيمًا ففاق جميع
الحكماء وهو الشيخ محمد عبده وقد روى ذلك السيد رشيد رضا
وهو يؤرخ لمحمد عبده .

كذلك ظهر في مصر طبقة من الصحفيين الممتازين في ذلك
الحين على رأسهم الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد التي

أُفسحت صفحاتها لمقالات الكواكبي • وحفل ميدان الأدب بطائفة من فحول الشعراء منهم سامي البارودي وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم فهؤلاء جميعا علا صوتهم بالقصائد العصماء التي خدمت شتى نواحي الإصلاح • كذلك كان هناك جيل صاعد من تلاميذ محمد عبده يشقون طريقهم في ميادين الإصلاح ومنهم لطفى السيد والعقاد •

تلك كانت حالة مصر يوم وصل إليها عبد الرحمن الكواكبي في منتصف نوفمبر سنة ١٨٨٩ لم يرافقه أحد من أسرته سوى ابنه الأكبر كاظم •

ولم تمض على مبارحة الكواكبي حلب بضعة عشر يوما الا وعرف الناس بوجوده في مصر • وأخذت جريدة المؤيد تنشر له كتابه الذي أسماه طبائع الاستبداد في مقالات متفرقة بعنوان الرحالة كاف • ويقول كامل الغزى في ترجمته للكواكبي « وأخذت جريدة المؤيد تنشر له تفرقة كتاب طبائع الاستبداد الذي لم يطلعنا عليه مطلقا بخلاف كتاب جمعية أم القرى فقد أطلعنا عليه مرارا • ثم أنه طبع الكتابين المذكورين وقام لهما في المابين السلطاني ضجة عظيمة وصدرت ارادة السلطان بمنع دخولهما الى الممالك العثمانية • بيد أنه رغما عن ذلك وصلا الى حلب على صورة خفية وقرأناها في سمرنا المرة بعد المرة • وبلغنا أنه بعد دخوله الى مصر بأيام قليلة إلتف حوله جماعة من ادباء الأتراك يزعمون أنهم من طائفة جون ترك ، وما هم في الحقيقة الا جواسيس يراقبون حركاته وسكناته ويكتبون بها الى المابين •

لقى الكواكبي في مصر اخوانه الأحرار السوريين الذين فروا من قبله الى القاهرة • لقي رشيد رضا الذي جاء من بلدته القلمون من أعمال طرابلس فرارا الى مصر فوصلها قبل الكواكبي بعام

(١٨٩٨ م) ليلى باسأاذه ورائده محمد عبده فقد قال له رشيد رضا اننى أعاهدكم أن أكون معكم كالمرید مع أستاذة • فوضع محمد عبده له منهاج جريدة واختار له اسمها (المنار) وحذره من الخوض فى السیاسة ولم یلبث أن صدر عددها الأول فى الشهر التالى لوصوله الى مصر • كذلك التقى الكواکبى بالمرحوم عبد الحمید الزهراوى وهو الذى لعب دورا هاما وكبیرا فى الحركة العربیة بعد تولیه رئاسة المؤتمر العربى الأول الذى عقد فى باريس سنة ١٩١٣ والذى كان من مقرراته مطالبة جماعة الاتحاد والترقى الحاكمة باعطاء العرب حقوقهم واشراكهم فى الحكم والاعتراف باللغة العربیة لغة رسمية • واضطرت الحكومة الثمانية الى الاعتراف ببعض الاصلاحات حتى تهدأ هذه الحركة • ثم جاءت نهاية الزهراوى على يد جمال باشا السفاح التركى فى ٦ من مارس ١٩١٦ حين بعث الى كراسى المشنقة برعيل كبير من أحرار العرب •

وأتیحت الفرصة للكواکبى أن یلتقى كذلك بالمرحوم محمد كرد على و ابراهیم سلیم النجار والشیخ طاهر الجزائرى الذى لعب دورا هاما فى الیقظة العربیة فى دمشق • فقد كان یشغل منصب مفتش المعارف فى دمشق فى الوقت الذى كان مدحت باشا حاکما لها وكان عونہ الأكبر فى تأسيس جمعیة المقاصد الخیریة ثم استبدلت جمعیة المقاصد الخیریة بمجلس معارف سنة ١٨٨٢ كان رئیسه العالم محمود أفندى حمزة مفتى دمشق ونائبه الشیخ طاهر الجزائرى • وكانت حلقة التدریس فى دمشق للشیخ طاهر الجزائرى من أشهر حلقات التدریس كان یحضر له دروسه صفوة المتعلمین والنابھین والمفكرین العرب وأقنع طاهر الجزائرى حكام دمشق أثناء ولاية مدحت باشا أن على الحكومة أن تنافس مدارس الارسالیات الأجنبیة فى تعلیم اللغة العربیة وأنها اذا لم تقم بذلك تلقى النشء تعلیمهم فى مدارس الارسالیات

هذه وتلقوا مع تعليمهم مذاهب سياسية معينة تحرص مدارس الإرساليات على تلقينها للنشء (١) . لكن جهود الشيخ طاهر الجزائري الإصلاحية لم تحقق ثمرتها المرجوة بفضل موقف السلطان عبد الحميد من كل جهد أصلاحي فما لبث أن نقل مدحت باشا من دمشق ثم اتهمه بالتآمر على قتل السلطان عبد العزيز وحكم عليه بالإعدام ثم خفف الحكم إلى النفي المؤبد حيث قضى بقية أيامه في الطائف (٢) . وغادر الشيخ طاهر الجزائري سوريا إلى مصر .

أخذ الكواكبي يلتقى بكل هؤلاء الأخوة المناضلين رفقائه في الكفاح في مقهى سبلندديار بالقاهرة . كانوا يجتمعون كل مساء وبدأت معارف الكواكبي تزداد ودائرة صلاته تتوسع فاتصل بالمرحوم علي يوسف صاحب المؤيد عن طريق السيد رشيد رضا فتمكنت بينهما روابط الصداقة والود . وأخذت جريدتا المؤيد والمنار تفسح له صفحاتهما لنشر مقالاته .

واستقر الكواكبي في القاهرة واتخذ مسكنا له بشارع الامام الحسين بالقرب من الأزهر وأخذ ينشر مقالات عن الاستبداد لا يوقعها باسمه وإنما اتخذ لنفسه رمز الرحالة كاف . ولكن الأوساط الأدبية والثقافية عرفت أنه (الكواكبي) صاحب هذه المقالات فأقبلت عليه وعلى مقالاته .

ثم كان أن توثقت عرى الصداقة بين الكواكبي والحديو عباس حلمي الثاني . ويبدو أن الكواكبي تعرف بالحديو عن طريق رشيد رضا والشيخ علي يوسف فالمرحوم رشيد رضا في سرده لتاريخ حياته (٣) يقول : كان الحديو عباس يثق بي وكان يستوقفني

(١) مصطفى الشهابي : محاضرات عن القومية العربية ص ٤٩ - ٥٢

(٢) احمد امين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث .

(٣) رشيد رضا : تاريخ الامام محمد عبده ص ٥٨٠ .

كثيرا مع الشيخ على يوسف عند انصراف الناس من المقابلة ويتحدث معنا في بعض الشئون الحاضرة . وأصبحت مأذونا في مقابلة الخديو في أى وقت . ولما علم بأن الشيخ محمد ابا الهدى الصيادى يسعى لمنع مجلة المنار من دخول جميع البلاد العثمانية وأنه يكاتبني ويحاول اقناعى بترك مصر والذهاب الى الأستانة ويعدنى بالرتب العلمية والوظائف الرسمية كانت هذه المسألة من أهم المهمات عند سموه . أما الشيخ على يوسف فكان أخلص للخديو من مصطفى كامل وكان مواليا للشيخ محمد عبده فى الوقت نفسه يخبرهم بجميع أسرار الخديو وما ينكره من أعماله .

والمعروف أن الخديو عباس حلمى الثانى كان يطمح فى الخلافة الاسلامية يريد أن يتولاها بدلا من السلطان عبد الحميد وأنه فى الفترة التى وصل الكواكبي فيها الى مصر كان على خلاف مع السلطان العثمانى يقرب اليه الأحرار السوزيين الذين ناصبوه (السلطان) العدا . نلمس هذا التقارب بين الخديو عباس الثانى والكواكبي ، ونجد ذلك فيما كتبه الكواكبي : من ذلك قوله فى مقدمة كتابه طبائع الاستبداد « أننى فى سنة ثمانى عشر وثلاثمائة وألف هجرية هجرت ديارى سرحا فى الشرق فزرت مصر واتخذتها لى مركزا أرجع اليه مغتنما عهد الحرية فيها على عهد عزيزها حضرة سمى عم النبى (العباس الثانى) الناشر لواء الأمن على أكتاف ملكه . . »

ويتخذ المؤرخون من علاقة الكواكبي بالخديو عباس الثانى دليلا على أن الذى أوعز للكواكبي برحلته التى طاف فيها البلاد العربية هو الخديو نفسه ، وأن هذه الرحلة التى تمت بإيعاز الخديو كانت للدعاية له بشأن الخلافة الاسلامية . لكن هذا القول غير ثابت وتعوزه الأدلة المختلفة . ويستنتج الذين يقولون بأن الكواكبي قام برحلة لحساب الخديو عباس حلمى الثانى أن الصلة

بينهما كانت متينة قوية ، وان الكواكبي أثنى على الخديو ثناء مستطابا . فبالإضافة الى ما ذكرناه للكواكبي فى كتابه طبائع الاستبداد نجده فى كتابه أم القرى يقول :

ان جمعيتنا هذه اختارت أن تجعل مركزها المؤقت فى مصر ، دار العلم والحرية فلها أمل قوى فى أن حضرة العزيز (عباس الثانى) يكون عضدا للقائمين باعزاز الدين ، وحاليا فخريا للجمعية ، ولا بدع فانه خير أمير شاب نشأ على الغيرة الدينية والحمية العربية خصوصا جنابه السامى من آل بيت حازوا بين سائر ملوك الاسلام وأمرائه قصب السبق فى الاطلاع على أحوال الدنيا ، فاجتهدوا فى الترقيات السياسية والعمرانية والعلمية والتنظيمية والمدنية ، حتى أن النهضة العثمانية بكل فروعها مسبوقة فى مصر ومقتبسة عنها ، بل كما يعلم العارفون أنها تقدمت الدولة العلية العثمانية بعض خطوات فى ميدان المدنية والعمران مدفوعة بأيدي المرحومين محمد على وابراهيم وفاضل وكامل وغيرهم من الأمراء حتى والأميرات المصريات ، فما كان رشيد وعالى وفؤاد وكمال ومدحت وعسوى وبقية أحرار الأتراك الا وأكثرهم آلات أوجدتها ومدتها بالقوة هؤلاء العظام ، ولا غرو فقد يحمل الابن أباه على الرشد وان أباه .. »

بينما نجد الأستاذ عباس العقاد فى كتابه الرحالة كاف (عبد الرحمن الكواكبي) ينفى فكرة أن يكون الكواكبي قد قام برحلته للبلاد العربية لحساب الخديو عباس حلمى الثانى . ويقول انه عرف أحد الشيوخ الذين عاشروا الكواكبي وتتبعوا أحوال الزعماء الدينيين فى أيامه خاصة فيما يدور حول العلاقة بين القاهرة والقسطنطينية وبين المهاجرين من بلاد الدولة العثمانية وبين حملة الأقلام والأقطاب المصريين ويقول العقاد ان هذا الشيخ قال له : « ان اناسا من أصحاب الكواكبي كانوا اذا سمعوا عنه أنه يعمل لحساب الخديو ويهيىء الجو فى بلاد العرب لمبايعته بالخلافة تبسموا وقالو : والله

كما يعمل الرجل الا لحساب نفسه . ألا ترونه حريصا على الخلافة العربية القرشية حريصا على النسبة الى قريش في بيت من بيوت الامارة ؟ »

ويضيف العقاد قائلا ولم أعرف يومئذ موقع الصواب في هذه المنطقة ، ولكنني قرأت كتب الكواكبي بعد ذلك عن الدعوة فرأيت أن الرجل يدعو الى غاية طويلة الأمد يعلم أنها لا تتم في حياة فرد واحد ، ويوطن العزائم على ذلك بين قرائه وصحبه ، وهو أخرى أن يضمهم في سرعة الانجاز وسرعة الجزاء لو كان له مأرب يتعلق به ويعلق به آمال العاملين معه غير مضطرين الى التصريح بمراده . »

ان المسلم بأخلاق الكواكبي والدارس لشخصيته واخلاصه للقضية التي أمر بها وعاش من أجلها - وهي حق العرب في الحياة الحرة الكريمة مستقلين أعزاء كراما على أنفسهم أقوياء مع الحق حربا عوانا على الباطل ، حماة للدين الاسلامي الذي أنزله الله سبحانه وتعالى بين ظهرائهم ومن أجل هذا فالخلافة الاسلامية من حقهم دون سواهم - لا تجعلنا نوافق الرأي القائل بأن الكواكبي كان يعمل لحساب أحد أو داعية بالخلافة لشخص مهما كان هذا الشخص عزيزا له . فمن المعروف أن الكواكبي دعا الى حق العرب وبالذات أهل الجزيرة العربية في الخلافة الاسلامية وأن يكون الخليفة عربيا قرشيا وهي شروط لا تنطبق على الخديو عباس حلمي الثاني بالطبع .

كذلك يذكر الدارسون لحياة الكواكبي أنه ما ان عاد من رحلته الى البلاد العربية حتى وجد نفسه يبدون عمل يسد به نفقته (١) ، ولو أنه كان يعمل لحساب الخديو عباس لما واجه نوعا

(١) شامي الدهان في الكواكبي سلسلة نوابغ الفكر العربي ص ٣٠

من الضيق فى معيشتة ولأغدق عليه الكثير من الهبات والعطايا .
وحالت وفاة الكواكبى المفاجئة بعد رحلته الى البلاد العربية
دون تدوينه لأخبار هذه الرحلة لأن المنية عاجلته بعدها بثلاثة
أشهر . كذلك ينبغى أن نشير الى أن الكواكبى كانت رحلته الى
البلاد العربية والاسلامية على مرحلتين أو على فترتين زار فى الرحلة
الأولى السودان ووصل الى سواحل أفريقيه الشرقية وزار زنجبار
والحبشة وعاد بعدها الى مصر ليستأنف رحلته الثانية . والكواكبى
ان لم يذكر تفاصيل رحته ذكر أنه زار مصر ثلاث مرات (١) : المرة
الأولى كانت حين جاءها من الشام فارا من وجه السلطان عبد الحميد .
ونشر فى جرائدها مقالاته السياسية تحت عنوان الاستبداد . أما
زيارته الثانية فكانت حين قطع جزءا من رحلته وعاد اليها ليستعد
لجولته الثانية والأخيرة من رحلته . ثم كانت الزيارة الثالثة حين
انتهت رحلته وعاد الى مصر ليتوفى فيها .

زار الكواكبى فى رحلته الثانية الحجاز وصحراء الجزيرة
العربية واليمن ومنها سار الى الهند ووصل الى ميناء كراتشى حيث
عاد على ظهر سفينة حربية ايطالية بتوجيه من وكيل ايطاليا
السياسى فى مسقط طافت به سواحل بلاد العرب وسواحل أفريقية
الشرقية . وعاد الكواكبى من هذه الرحلة بمعلومات وافرة عن حالة
البلاد الزراعية والمعدنية حتى انه استحضر نماذج المعادن من تلك
الأصقاع .

وكان الكواكبى يتمنى لو أتاحت له زيارة بلاد المغرب العربى
يتم بها اختباره للمسلمين ولكن المنية حالت دون ذلك .

كذلك قيل ان ايطاليا هى التى يسرت للكواكبى رحلته لأنها
كانت تطمح فى نجاح المسعى بخلق الخلافة الاسلامية من تركيا وأنها

(١) الكواكبى : طبائع الاستبداد ص ١٠ طبعة حلب سنة ١٩٥٧ .

(ايطاليا) كانت تطمح فى بسط نفوذها الاستعمارى على شواطىء البحر الأحمر . ويستند أصحاب هذه الرواية على اجتماع الكواكبى أثناء رحلته بالقنصل الايطالى فى الحديدة باليمن ويتنقله على ظهر سفينة حربية ايطالية كانت به سواحل الجزيرة العربية بتوصية من وكيل (معتمد) ايطاليا السياسى فى مسقط .

لكن الملم بأخلاق الكواكبى ومبادئه التى عاش من أجلها ومات وهو يجاهد فى سبيل تحقيقها لا يؤيد رأى القائل بأن الكواكبى يقبل أن يكون عميلا لدولة أجنبية وأنه كان يصدر فيما يقول عن ايمان خالص بحق أمتة العربية ومكانتها التى يشبغى أن تتبوأها .

ويواجه المؤرخ لحياة الكواكبى قلة المعلومات أو ندرتها عن رحلته الهامة التى طاف فيها البلاد العربية وعمن قابلهم فيها وعن انطباعاته وتواريخ زيارة كل قطر والمدة التى أقامها فيه الى آخره . لكن عذرنا فى ذلك كما هو عذر كل المتصدين لحياة الكواكبى بالدراسة أنه كان بصدد كتابة وصف لرحلته والتى كان بنيتها أن يفرد لها كتاب بأكمله لولا أن المنية عاجلته فتوفى مساء الخميس الرابع عشر من يونيو ١٩٠٢ الموافق الخامس من ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ .

وكان الكواكبى قد اعتاد كل مساء أن يجتمع باخوانه وأصدقائه فى أحد المقاهى وفى اليوم الذى وافته المنية فيه جلس فى مقهى يلدز قرب حديقة الأزبكية وكان معه يومها الأستاذ رشيد رضا ومحمد كرد على وأبراهيم سليم النجار . وشرب الكواكبى القهوة كالاعتاد وأحس بعدها بالألم فى أمعائه فقام ابنه كاظم ينقله الى منزله حيث أصابته نوبة قلبية توفى على أثرها وعمره آنذاك خمسون عاما .

وقال رشيد رضا وهو يؤرخ للسيد جمال الدين الأفغانى

أنه شاع أنه مات مسموما مثلما شاع ذلك في موت الأستاذ الامام السيد عبد الرحمن الكواكبي . وذهب البعض الى أن السلطان عبد الحميد هو الذي دبر ذلك له ، وان كان هذا القول تعوزه الأدلة الكثيرة .

وهناك رواية مختلفة بعض الشيء عن وفاته يرويها الأستاذ محمد كرد علي فيقول عن الكواكبي : جاء لي ذات ليلة يسمر معي في داري مع الحبيب رفيق بك العظم يستشيرني في أمر عظيم . قال : ان الحديو عباس عرض عليه أن يصحبه الى الاستانة ويستجلب رضاه عنه ، وبذلك تنحل هذه المشادة ويطمئن خليفة الترك اليه . فصعب علي وعلى رفيك بك ابداء رأي في موضوع جد خطير كهذا ، لأن ابن عثمان لا تأخذه هوادة فيمن خرجوا على سلطانه ، وخشينا أن تكون هناك دسياسة يذهب الرجل ضحيتها . ومما قال لنا أنه حائر في أمره بين القبول والرفض وأنه شعر بالأمس بوجع في ذراعه وما عرف له تعليلا . وتقوض المجلس وذهب السيد الكواكبي الى داره . فما هي الا ساعة وبعض ساعة حتى سمعت ابنه السيد كاظم في الباب يبكي وينوح ويقول : قم يا كرد علي فان صديقك أبي قد مات . »

وسواء اصدقت الرواية الأولى أو الثانية فان الكل متفق على تاريخ وفاته وهو الرابع عشر بن يونيو ١٩٠٢ وما ان علم الحديو عباس بوفاة (١) حتى أمر أن يدفن على نفقته الخاصة ودفن في

(١) يقول الغزى في مجلة الحديث سنة ١٩٢٩ العدد ٦ أخبرني ابن خالتي الشيخ صالح عيسى وهو رجل موصوف بالصدق والامانة ان الخديو عباس حلمي الثاني دعا الكواكبي لزيارته بالاسكندرية فلبى الكواكبي الدعوة ثم عاد الى القاهرة ليسهر معنا في مقهى استانبول مع جماعة من أدباء مصر ولما انصرفنا جاء ابنه كاظم يقول ان أخاك والدي مات فدهشت من هذا الخبر المفاجيء وفحصه الاطباء من قبل الخديو فوجدوا أنه فارق الروح وشيعت جنازته على نفقة الخديو .

باب الوزير • ثم نقلت مقبرته فى نهاية شارع العفيفى بمنطقة
باب الوزير وعليها بيتين لشاعر النيل حافظ إبراهيم :

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى
هنا خير مظلوم هنا خير كاتب

قفوا واقراءوا أم الكتاب وسلموا
عليه فهذا القبر قبر الكواكبى

ونعاه كل مخلص من أبناء هذه الأمة العربية وصدرت
الأهرام والمؤيد واللواء تبكى الحسارة الكبرى التى ألت بالأمة
العربية لوفاته وأشاد الجميع بفضله ودوره وسيظل التاريخ يذكر
اسمه كعلم من أعلام هذه الأمة العربية الخالدة أدى دوره كأحسن
ما يكون الأداء وذهب للقاء ربه راضيا عنه سعيدا به لأنه كان رجلا
بارا بدينه وفيما لقومه وأمتة مخلصا لمبادئه نزيها أبى النفس •
ولا يستطيع باحث فى اليقظة العربية الحديثة أن يتجاهل دوره أو
يغمضه حقه لأن دوره وحقه أعظم من أن ينكر أو يهمل شأنهما •



الفصل الرابع

دور الكوآبي في البقعة العربية

من المعروف أن حركة النهضة العربية في العصر الحديث بدأت في أول أمرها في صورة بعث للأدب العربي • ولقد شهدت بلاد الشام منذ منتصف القرن التاسع عشر حركة إحياء اللغة العربية وآدابها وهي الحركة التي بدأت على يد المسيحيين العرب في هذه البلاد • ذلك أن بلاد الشام كانت مركزا للرساليات التبشيرية المسيحية التي قام بها المستشرقون الأوروبيون • ومن المعروف أن فرنسا كانت أسبق الدول في هذا المجال وأنها بدأت نشاطها في بلاد الشام قبل الحكم المصري لهذه البلاد بفترة طويلة من الزمان • فكانت سوريا ولبنان موضع اهتمام البعثات الدينية الفرنسية • وأنشأ اليسوعيون الفرنسيون في لبنان أول مركز للثقافة الفرنسية وهي المدرسة التي أنشئوها في عيّنطور (١) سنة ١٧٣٤ ميلادية كما أنشأوا مدرسة في زغرتا وقد تعلم فيها أجيال من شباب الموارنة ومنهم من أتم دراسته في الكلية الشرقية بروما وبمدارس فرنسا • ومن ثم كانت الموارنة أكثر الطوائف اتصالا بالحضارة الغربية وكان لهم فضل تعريف مواطنيهم بنماذج من الثقافة الغربية التي كانت سائدة في ذلك الوقت • (٢)

(١) د. مصطفى الخالدي وعمر فروخ - التبشير والاستعمار ص ١١

(٢) من أراد التفصيل عليه الرجوع الى تاريخ سوريا ليويسف الدبس ص

٦٠٠ الجزء الرابع من المجلد الثامن •

ومما ساعد في حركة النهضة العربية نقل الطباعة التي بدأت في أوروبا وفي إيطاليا إلى بلاد الشرق . وكانت مطبعة الاستانة العبرية أول مطبعة أنشئت بالشرق . وبدأت أول مطبعة تنشأ بالشام تطبع الكتب العبرية وهي مطبعة دير فرحيا جنوب طرابلس في أوائل القرن السابع عشر طبع فيها كتاب المزامير باللغتين السريانية والعبرية . ثم أنشئت أول مطبعة عربية بحلب في أوائل القرن الثامن عشر أنشأها بطريريك أنطاكية وكانت أول مطبوعاتها كتاب في الطقوس الدينية (١) .

كذلك بذل المبشرون الأمريكيون وهم البروتستانت دورهم في حركة الاهتمام بالتعليم والاهتمام بالتراث العربي كسبيل إلى تدعيم نفوذهم ومنافسة المبشرين الفرنسيين وغيرهم من الجزويت والكاثوليك . وفتح المبشرون الأمريكيون مدارس مختلفة في بلاد الشام . فسواء صح ما نقل عن الدكتور كورنيلبوس فان ديك المبشر الأمريكي المشهور من أنه ركب يوما حماره متوجها إلى إحدى القرى ليفتح مدرستين ، فاستغرب القروى وقال هل قريتنا الصغيرة بحاجة إلى مدرستين . فأجابه الدكتور قائلا : حيث يذهب الدكتور فان ديك يتبعه الجزويت . سواء صحت هذه الرواية أم لم تصح ، فانها تصور واقع الحال في شدة التنافس بحيث يفتح المرسلون الأمريكيون مدرسة يتبعهم المرسلون اليسوعيون بفتح مدرسة أخرى في نفس المكان . ومن أهم ما فتحه في بلاد الشام الكلية السورية البروتستانتية التي كانت نواة الجامعة الأمريكية في بيروت إلى جانب ما أنشأوه من مدارس في زحلة ودمشق وحلب وغيرها . لكن أهم من فتح المدارس كان التأثير الذي تركه الغرب على مجتمع هذه

(١) ارجع إلى تاريخ الصحافة العربية للفيكونت فيليب دي طرازي وتاريخ الطباعة في الشرق العربي لخليل صابات .

الطوائف المسيحية • لقد وجدت لديهم رغبة قوية فى أن يقتبسوا أسلوب الغرب ونظمه وتقاليده وبدأ ذلك بشكل واضح لدى المسيحيين فى لبنان الذين بدأ أكثرهم فى الهجرة الى أمريكا • ثم كان أن أدى ازدياد التجارة من الشرق وأوربا وأمريكا الى خلق طبقة جديدة بين أفراد هذه الأقليات طبقة برجوازية فى المدن الكبرى من المسيحيين السوريين • الأرمن ، اليهود وهى طبقة تختلف عقلياتها وتفكيرها عن مسيحي الشرق المقيمين فى القسرى • والذين كانوا مجتمعات مغلقة على نفسها • بدأ هؤلاء البرجوازيون يقتبسون أساليب الحياة الأوروبية ولم يكن لهؤلاء المسيحيين ولاء بالطبع للدولة العثمانية ولا لمجتمعاتهم التى نشأوا فيها بقدر ما اتجه ولاؤهم لأوربا يقلدون أسلوب الحياة الأوروبية ويتحمسون فى اخلاص لهذه الحكومات الأجنبية الذين ارتبطوا بها ارتباط حب ومنفعة •

وبدأت الثقافة الأوروبية تترك بصماتها فى الشرق العربى عن طريق الرحلات والهجرة والمدارس والتجارة • وكان من شأن ذلك أن تزداد الهوة بين المسلمين وبعض المسيحيين واليهود المتعصبين للثقافة الغربية من جانب آخر • وكان اقتباس هؤلاء المسيحيين واليهود للغات الغربية ولأسلوب تفكير وتقاليده وعادات الغرب ذات أهمية كبيرة بالنسبة للحكومات الغربية والشركات التجارية التابعة لها التى كانت بحاجة ماسة الى استخدام أفراد هذه الأقليات فى الوظائف الصغرى لديها وكان ذلك مدعاة أيضا لحقد وتشكك بعض زملائهم من المسلمين • (١)

واذا كانت الفتنة الكبرى التى شهدتها لبنان وسوريا سنة ١٨٦٠ بين النصارى والدروز والتى لا يمكن انكار وجود عوامل

(١) Hourani : Minorities in the Arab World, p. 26.

كذلك ينبغى الرجوع الى كتاب الاستاذ ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ص ١٨٤ وما بعدها •

خارجية في اشعالها قد جاءت نتيجة لتعصب ممقوت من جانب البعض ، فان أنظار المستنيرين من المسيحيين من أبناء الشعب العربي قد وجهت اهتمامها للقضاء على هذا التعصب ومحو آثاره .
وهنا يبرز دور كل من نصيف اليازجي وبطرس البستاني . أخذ نصيف اليازجي يدعو الى بعث الأدب العربي القديم وكان يعتقد أن ذلك ينبغي أن تكون مهمة المثقفين العرب الأولى . ومما يستدعى الانتباه في هذه الدعوة أنها كانت موجهة الى جميع العرب النصارى منهم والمسلمين وأنها كانت تناشدهم جميعا أن يذكروا ويهتموا بإحياء تراثهم المشترك .

كذلك برز البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣) كأحد الشخصيات العربية التي لعبت دورا مهما في ذلك الحين . كان بطرس هو الآخر عربيا مسيحيا من لبنان تلقى حظا من التعليم أكثر مما تلقاه نصيف اليازجي وأقام في بيروت حيث ترجم الكتاب المقدس الى اللغة العربية . وساعده اتصاله بالمبشرين الأمريكيين والعمل معهم الى اتقان اللغة الانجليزية وعمل بالتعليم في مدارسهم ومما يذكر له بالفضل عملان عظيمان هما اصداره معجم اللغة العربية نشره سنة ١٨٧٠ بعنوان محيط المحيط ثم أعد موجزا له أسماه قطرا المحيط . أما عمله الثاني فهو اصداره دائرة معارف عربية للمعارف أكمل منها ستة أجزاء وقام أبناءه وأحفاده وبعض أبناء أسرته باتمامها بعد وفاته فكان مجموع ما صدر أحد عشر جزءا . كذلك حارب البستاني التعصب الديني وانشأ هو ونصيف جريدة أسبوعية أسماها نفيسوريه سنة ١٨٦٠ كان هدفها الدعوة الى الوفاق بين سكان البلاد من مختلف الطوائف على أثر وقوع مذابح سنة ١٨٦٠ . كان البستاني يؤمن أن المعرفة تؤدي الى انارة الذهن والتنوير يقضى على التعصب . وبعد مرور ثلاث سنوات انشأ مدرسة أطلق عليها اسم المدرسة الوطنية غايتها تحقيق الهدف ذاته عن

طريق تربية الطلاب من مختلف الطوائف على أساس التسامح والمثل العليا الوطنية . وبعد أن نشر معجمه في اللغة العربية انشأ سنة ١٨٧٠ مجلة سياسية وإدارية اسمها (الجنان) تصدر مرة كل أسبوعين وتسعى إلى تحقيق الهدف ذاته عن طريق مكافحة التعصب واتخذ لمجلته شعار حب الوطن من الإيمان .

ويمكن أن نصنف اتجاه المسلمين العرب على هذا النحو : كان هناك بعض المسلمين المتعصبين الذين يكرهون الحضارة الغربية لأنها مسيحية ولأنها تهدد بالقضاء على عالمهم القديم . وكان هناك من يعترف بقيمة هذه الحضارة الغربية وتقاليدها وضرورة الاقتباس منها لكنهم يرغبون في الاحتفاظ بحضارة الاسلام وتقاليده الرائعة فالمشكلة بالنسبة لهؤلاء كانت مشكلة ادخال روح المدنية الحديثة وإيقاظ المسلمين من سباتهم العميق ليلاحقوا بركب الحضارة الذي سبقتهم فيه الأمم الأخرى والذي كان ينبغي أن يكونوا (المسلمون) هم روادها وقادتها كشأنهم في سالف الأزمان .

وهنا يبرز دور ثلاثة من رواد الفكر الاسلامي الأفغاني ، محمد عبده ، الكواكبي . فمما لا شك فيه أن وصول السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر مارس ١٨٧١ وأقامته فيها حوالي ثمان سنوات (أغسطس ١٨٧٩) كانت من خير السنين بركة على مصر والعالم الاسلامي . يقول الأستاذ أحمد أمين في كتابه زعماء الإصلاح في العصر الحديث : ثماني سنين كانت من خير السنين بركة على مصر والعالم الشرقي لا بما أفاد جمال مظهرها وحسن رونقها وسعادة أهلها ولكن لأنه كان يدفن في الأرض بذورا تنهياً في الخفاء للنماء ، وتستعد للظهور ثم الازدهار فما أتى بعدها من عشق للحرية وجهاد في سبيلها فهذا أصلها وان وجدت بجانبها عوامل أخرى ساعدت عليها وزادت في نموها . وخشى الخديو توفيق مما يدعو له السيد الأفغاني فصدر قراره بتركه لمصر . فلما

كانت الثورة العربية نقلته حكومة الهند من حيدر أباد الى كلكتا
والزمتة الإقامة فيها مخفورا مراقبا حتى انتهت الثورة بالاحتلال
الانجليزى لمصر . وغادر الأفغانى الهند الى لندن سنة ١٨٨٣ لكنه
لم يطل الإقامة فيها فسافر منها الى باريس وكتب الى تلميذه
وصديقه الشيخ محمد عبده ليوافيه بها من منفاه فى بيروت حيث
أصدرا جريدة العروة الوثقى يبغيان نشرها فى العالم الاسلامى
لتفهم أبنائه حقوقهم وواجباتهم . لكنهما يخشيان أن يفهما من
مخاطبتهما المسلمين انهما يدعوان الى إثارة الشقاق بينهم وبين
أبناء الأديان الأخرى فى الأقطار الاسلامية فهما يقولان : لا يظن
أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا
ومدافعتها عن حقوقهم تقصر الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى
أوطانهم ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ويشاركهم فى المنافع من
أجيال طويلة ، فليس هذا من شأننا ولا بما ندعو اليه ولا مما يبيحه
ديننا ، ولا تسمح به شريعتنا . ثم صدر العدد الأول من هذه
الجريدة فى ١٥ جمادى الأول سنة ١٣٠١ هـ (١٣ مارس ١٨٨٤ م)
وقد تضمن منهاج الأفغانى ومحمد عبده فى الإصلاح . بلغ الاحجاف
بالشرقيين غايته ووصل العدوان فيه نهايته ، وأدرك التغلب منهم
نكايته خصوصا فى المسلمين منهم ، منهم ملوك انزلوا عن عروشهم
جورا وذوو حقوق حرموا حقوقهم ظلما وأعضاء باتوا أذلاء وأجلاء
أصبحوا حقراء وأغنياء امسوا فقراء ، وأصحاء أضحوا سقاما ،
وأسود تحولوا أنعاما ولم تبق طبقة من الطبقات الا وقد مسها الضر
من افراط الطامعين فى أطماعهم خصوصا من جراء هذه الحوادث التى
بذرت بذورها فى الأراضى المصرية من نحو خمس سنوات بأيدى
ذوى المطامع فيها . . أن الحالة السيئة التى أصبحت فيها الديار
المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموما ، ان مصر
تعتبر عندهم من الأراضى المقدسة ولها فى قلوبهم منزلة لا يجلبها

سواها قطر نظرا لموقعها من الممالك الاسلامية ولائها باب الحرمين الشريفين . . ان الخطر الذي ألم بمصر نفرت له أحشاء المسلمين وتكلمت به قلوبهم ولن تزال آلامه تستنفرهم ما دام الجروج نفارا . (١)

ثم يمضى العدد الأول من هذه الجريدة يوضح أهداف جمعية العروة الوثقى السرية السياسية التي ضمت الى عضويتها (عقلاء الأمة وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التي أدت بهم الى ما هم فيه . . . وكتبوا على أنفسهم النظر في أمر السلطة العامة الاسلامية وفروض القائم بها . وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين وفيها موسم الحجيج في كل عام يجتمع اليه الشرقي والعربي ويتآخى في مواقعها الطاهرة الجليل والحقير والغنى والفقير ، كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات .

ومن الواضح أن الأفغانى يتشابه فى هذه الناحية مع الكواكبي فى جمعيته التى تخيل عقدها فى مكة أم القرى لتقصى مظاهر الضعف عند المسلمين ووصف الدواء بعد تشخيص الداء .

كذلك نجد الأفغانى يضع بعض المبادئ التى يراها لازمة لاصلاح احوال المسلمين شبيهة بما نادى به الكواكبي فجريدة العروة الوثقى تلخص أهم أغراضها فى نفس عددها الأول فيما يأتى :

١ - بيان الواجبات على الشرقيين التى كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات .

٢ - اشرب النفوس عقيدة الأمل فى النجاح وازالة ما حل بها من اليأس .

٣ - دعوتهم الى التمسك بالأصول التى كان عليها أبائهم وأسلافهم وهى ما تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب .

٤ - الدفاع عما يرمى به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصا من التهم وابطال زعم الزاعمين ان المسلمين لا ينعدمون فى المدنية ماداموا متمسكين بأصول دينهم .

٥ - أخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة .

٦ - تقوية الصلات بين الأمم الاسلامية وتمكين الألفة بين أفرادها وتأمين المنافع المشتركة بينها ومناصرة السياسة الخارجية التى لا تميل الى الحيف والاجحاف بحقوق الشرقيين .

أراد الأفغانى ان يدعو الى اصلاح المسلمين دينيا واجتماعيا وسياسيا اذ كان المثل الأعلى له حالة المسلمين فى عهد الخلفاء الراشدين من حيث العقيدة والصفات الخلقية والنظام السياسى فيرى أنهم كانوا موحدين حقا معتزين بدينهم ، لا تفرقهم المذاهب والنحل مترابطين برابط الأخوة فيهم خلق الآباء والشمامسة ، يبذلون أعز شئ فى سبيل عقيدتهم وعزتهم ينشرون بينهم العلم ما استطاعوا ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وتلك كانت نفس ما تمناه الكواكبى ورغب فى تحقيقه كما يتضح ذلك من كتابه جمعية أم القرى على نحو ما سنوضحه .

ثم يحمل الكواكبى على عقيدة الجير والخطأ بنفس العنف الذى حمل به الافغانى على الجبرية فى جريدة العروة الوثقى . فالأفغانى يرى أن الفساد دخل على توالى الزمن من خمسة أبواب من عقيدة

الجبر والخطأ فى فهم القضاء والقدر حتى صرفت النفوس عن الجدل فى الأعمال ومما أدخله الزنادقة على تعاليم الاسلام فى القرنين الثالث والرابع الهجريين فجعلوا المسلمين شيعة وأحزابا وأضعفوا قوة الدين بما أدخلوه من تعاليم فاسدة ومما أحدثه السوفسطائيون من أفكار ، وعندهم الحقائق خيالات تبدو للنظر ومما عمله كذبة المحدثين من وضع أحاديث ينسبونها الى رسول الله وفيها السم القاتل لروح العمل والاباء وفيها ما يستوجب ضعفا فى الهمم وفتورا فى العزائم .

فاذا نظرنا الى كتاب أم القرى نجد الكواكبى يحمل على عقيدة الجبر والقدرية هو الآخر . فالكواكبى يصدر عقيدة الجبر وتأثيرها على أفكار الأمة فى الاسباب الدينية التى أضعفت المسلمين ويخصص بحثها فى أول اجتماع تعقده جمعيته فى مكة بعد اجتماعها الاول التمهيدى . فيقول على لسان العضو الشامى (انى أرى منشأ هذا الفتور هو بعض القواعد الاعتقادية والأخلاقية مثل العقيدة الجبرية التى من بعد كل تعديل فيها جعلت الأمة جبرية باطنا قدرية ظاهرا) (١) .

كذلك نجد تشابها بين الأفغانى والكواكبى فى تأكيد كل منهما على أهمية اللغة العربية والمحافظة على اللسان العربى . فالأفغانى يقول ان عقلاء الأمة لبحث أحوال المسلمين اختاروا ان يكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم وهو **اللسان العربى** ويؤيد فى مجالسه بيان الخطر مما تسعى اليه الأمم الأجنبية فى الشرق من اضعاف اللغة القومية وقتل التعليم القومى والتغيير من آداب الأمم الشرقية لتحل محلها لغتها وآدابها « مع أنه لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ولا عز لقوم

(١) الكواكبى : أم القرى ص ٢٣ طبعة المكتبة التجارية سنة ١٩٣١م

لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لهم اذا لم يقيم منهم من يحيى آثار رجال
تاريخهم فيعمل عملهم وينسج على منوالهم . »

وينفى الأستاذ رشيد رضا عن الأفغانى كونه يريد جامعة
اسلامية يكون المسلمون كلهم دولة واحدة ويروى عن الأفغانى
ما كتبه فى مقاله بعنوان (الوحدة الاسلامية) التى نشرت فى
العدد التاسع من العروة الوثقى « لا ألتمس بقولى هذا أن يكون
ملك الأمر فى الجميع شخصا واحدا فان هذا ربما كان عسيرا
ولكنى أرجو أن يكون سلطانهم جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم
الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الأمر ما استطاع
فان حياته بحياته وبقائه ببقائه . . . » ويخلص الأستاذ رشيد رضا
من ذلك الى القول أنه (الأفغانى) كان يكتفى بالوحدة الدينية
وعقد المحالفات بين الدول الإسلامية (كالترك والفرس والأفغان . .)
ثم الاعتراف لأقواهن برياسة الحلف (١) .

ومن هنا يختلف الكواكبى عن الأفغانى ، فالكواكبى كان
داعية للقومية العربية يرى أن تكون قيادة الأمة الاسلامية للعرب
مثلما كان لهم هذا الأمر فى سالف الزمان بل هو يحصر الخلافة
الاسلامية فى عرب الجزيرة بالذات على نحو ما جاء فى كتابه أم
القرى . فالكواكبى يرى ان الدور الذى لعبه العرب فى العالم
الاسلامى بلغتهم وانتسابهم الى صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم
ووجود الحرمين الشريفين فاذا كان على العالم الاسلامى أن يقف
فى جبهة واحدة فلا بد ان تكون القيادة عربية وان يكون مركزها
أم القرى لا اسطنبول .

ونحن لانتفق مع رأى القائل بأن الكواكبى اختلطت عنده

(١) رشيد رضا : تاريخ الامام محمد عبده ج ١ ص ٣٢٥ وما بعدها .

الفكرة الإسلامية بالفكرة العربية القومية (١). فالكواكبي يميز في وضوح بين الشعوب العربية والشعوب الإسلامية غير العربية يرى للأولى الزعامة على الثانية . وهو يرى ان أحد أسباب فشل الاتراك العثمانيين أنهم لم يستعربوا وليس هناك من سبب لذلك سوى كرههم للعرب وإطلاقهم أسماء ونعوت تحمل الحقد والكرهية مثل (يس عربى) أى عربى قذر و (ويلنجى عرب) أى عرب شحاذين . والعرب لا يقابلونهم فى كل ذلك سوى بكلمتين الأولى هى قول العرب فيهم : ثلاث خلقت للجور والفساد القمل وألترك والجراد ، والكلمة الثانية تسميتهم بالأروام كناية عن الريبة فى اسلامهم .

وأهمية دعوة الكواكبي أنه لم يتفق مع القائلين بتقوية الرابطة مع الدولة العثمانية على أساس أنها دولة الخلافة الإسلامية فأوضح الكواكبي أن احترام الشعائر الدينية فى أكثر ملوك آل عثمان هى ظواهر محضة وليس من غرضهم ولا من شأنهم ان يقدموا الاهتمام بالدين على مصلحة الملك ، وان الدين الإسلامى قد أصبح فى حاجة ماسة الى من يرعى شئونه بتعيين خليفة آخر غير الخليفة العثمانى وينبغى ان يكون هذا الخليفة عربيا قرشيا كما كان فى صدر الاسلام . ولا يريد أن ينفرد هو بهذا الرأى فيراه يصدره عن جمعية تمثل المسلمين فى كل قطر ذلك هى جمعيته التى اسمها جمعية أم القرى .

ففى الوقت الذى كان الأفغانى يرى اصلاح أحوال المسلمين على يد الدولة العثمانية كان الكواكبي يحمل حملة شعواء على الاتراك فهم لم يحترموا شعائر الدين وليس من غرضهم بل ولا من شأنهم ان يقدموا الاهتمام بالدين على مصلحة الملك . ثم نجده يسرد كثيرا من أعمالهم السيئة تجاه المسلمين ، فأقول هذا السلطان

(١) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٢٦٩

محمد الفاتح وهو أفضل آل عثمان قد قدم الملك على الدين فاتفق سرا مع فرديناند ملك (الاراغون) الاسبانيولى ثم مع زوجته ايزابيلا على تمكينهما من ازالة ملك بنى الأحمر آخر الدول العربية فى الاندلس ورضى بالقتل العام والاكرام على التنصر . وهذا السلطان سليم غدر بآل العباسى واستقصاهم حتى انه قتل الأمهات لأجل الأجنة وبينما كان يقتل العرب فى الشرق كان الاسبانيون يحرقون بقيتهم فى الاندلس وهذا السلطان سليمان ضايق ايران حتى الجأهم الى اعلان الرفض المكفر . . . وقد سعوا فى انقراض خمس عشرة دولة وحكومة اسلامية منها أنهم أغروا وأعانوا الروس التتار المسلمين وهولانده على الجاوة والهنديين وتعاقبوا على تدويخ اليمن فأهلكوا الى الآن عشرات الملايين من المسلمين يقتلون بعضهم بعضا لا يحترمون فيما بينهم ديناً ولا أخوة ولا مروءة ولا انسانية حتى ان العسكر العثمانى باغت المسلمين مرة فى صنعاء وهم فى صلاة العيد . . » (١)

ونجد الأفغانى يندد بالسياسة الأوربية تجاه المسلمين ويصب عليها جام غضبه حتى ان حملته على السياسة الانجليزية استغرقت أكبر قسم فى العروة الوثقى فهو يرى ان حركة الاستعمار الأوربى حركة دينية نصرانية موجهة ضد الاسلام وقد قدم مؤلف كتاب حاضر العالم الاسلامى للعلامة الأمريكى لوثرروب ستوردارد والذي ترجمه الى العربية الأستاذ عجاج نويهض وعلق عليه وكتب مقدمته الأستاذ شكيب أرسلان - ملخصاً لدعوة الأفغانى وفكره على النحو التالى : العالم النصرانى على اختلاف أممه وشعوبه عرقاً وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص - فجميع الدول النصرانية متحدة معا على دك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلاً . الروح الصليبية لم تبرح

(١) الكواكبى : أم القرى طبعة المكتبة التجارية سنة ١٩٣١ ص ٢٠٤

كامنة في صدور انصارى كمون النار في الرماد روح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم . . . جميع هذا يوضح ان العالم الاسلامي يجب عليه ان يتحد اتحادا دفاعيا عاما مستمسك الأطراف وثيق العرى ليستطيع بذلك الذود عن كيانه ووقاية نفسه من القضاء المقبل . وللوصول الى هذه الغاية الكبيرة انما يجب عليه اكتفاء تقدم الغرب والوقوف على تقدمه وقدرته (١) .

واذا كانت تلك دعوة الأفغاني وذلك هو مذهبه فان الكواكبي يركز على السياسة العثمانية التي اكتوى بها والتي رآها سببا في هضم حقوق العرب في المناصب والارتزاق من بيت المال هضما لا نسبة فيه حال كونهم ثلثي رعية الدولة العثمانية . كما حمل الكواكبي على الدولة العثمانية تمسكها بأصول الادارة المركزية مع بعد الأطراف عن العاصمة وعدم وقوف رؤساء الادارة العثمانية على أحوال تلك الأطراف ثم هو ينكر على سلاطين بنى عثمان تلقبهم بالقب الخلافة الاسلامية ثم يضع في ختام جمعياته التي تخيل عقدها في مكة شروطا من أربعة عشر بندا لاختيار الخليفة الجديد للمسلمين بدلا من السلطان العثماني ويضع في أول هذه الشروط ان يكون الخليفة عربيا قرشيا .

ومن هذه الناحية يبرز دور الكواكبي في اليقظة العربية الحديثة فهو أول كاتب مسلم دعا العرب الى قطع علاقتهم بالعثمانيين واستنهض همم قومه وبلغ تحمسه ان بلغ أسلوبه في بعض الأحيان منتهى الشدة والتفريع كقوله :

يا قوم ينازعني والله شعور هل موقفي هذا في جمع حي أحييه بالسلام أم أنا أخاطب أهل القبور فأحييهم بالرحمة . يا قوم لستم بأحياء عاملين ولا أموات مستريحين بل أنتم بين بين .

(١) حاضر العالم الاسلامي تأليف لوثر وب ستوردارد - مترجم .

يا قوم عليكم الله من المهتدين كان أجدادكم لا ينحنون الا ركوعا لله وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الاخوان . وأجدادكم ينامون الآن فى قبورهم مستوين أعزاء وأنتم أحياء معوجة رقابكم أذلاء .

يا قوم الهمكم الله الرشد متى تستقيم قاماتكم وترتفع من الأرض الى السماء أنظاركم وتميل الى تعالى نفوسكم فيستقل كل انسان منكم بذاته ويملك ارادته (١) .

ويخطيء من يصف الكواكبي أنه كان كاتباً اسلامياً متعصباً لدينه فهو يخاطب قومه من غير المسلمين بقوله :

يا قوم واعنى بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين ، أدعوكم الى تناسى الاسماء والأحقاد وما جناه الآباء والأجداد ، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين ، وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون فهذه أمم أوستريا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة **للالحاد الوطنى دون الدينى** والوفاق الجنسى دون المذهبى ، والارتباط السياسى دون الادارى . فما بالنا نحن لا نفكر فى ان نتبع احدى تلك الطرائق أو شبهها . فيقول عقلاؤنا لمثيرى الشحنةاء من الاعجام والأجانب: دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا ، نتفاهم بالفصحاء ونتراحم بالأخاء ، ونتواسى فى الضراء ونتساوى فى السراء . دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم فى الأخرى فقط . دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهى : **فلنحميا الأمة فليحميا الوطن** فلنحميا طلقاء أعزاء . »

وواضح مما أوردناه من كلام الكواكبي أنه يدعو لوحدة قومية

(٢) الكواكبي : طبائع الاستبداد ص ١٣٩ وما بعدها .

عربية لا يكون فيها الدين مجالا لتنازع أو تحاسد أو تباغض
فالدين عنده الله والوطن للجميع . ثم هو يدعو قومه للتبصر فيما
يبثه الغرب من عوامل التفريق بين أبناء الأمة العربية باسم الدين
فيقول علينا أن نقول لهؤلاء المصطادين في الماء العكر من الأجانب
ان العرب قوم يعرفون مصلحتهم وأنهم أخوة في السراء والضراء
مجتمعون على محبة أمتهم ووطنهم .

أحب الكواكبي قومه وأمته العربية التي جعلها الله أمة وسطا
للناس . فوطنه كل بقعة من هذه الأرض العربية يتمنى له العزة
ويرجو له الرقي ويطلب منه أن ينبذ من عدااء أبنائه الحاملين
الكسالى المتقاعدين عن نصره ووطنهم .

« وأنت أيها الوطن المحبوب : أنت العزيز على النفوس ،
المقدس في القلوب ، اليك نحن الأشباح ، وعليك تثن الأرواح . . .
أيها الوطن الباكى ضعافه : عليك تبكى العيون وفيك يحلو المنون .
الى متى يعبت خلاك اللثام الطغاة ؟ يظلمون بنيك ويذلون ذويك ،
يطاردون أنجالك الانجاب ويمسكون على المساكين الطرق والأبواب ،
يخربون العمران ويقفرون الديار ؟

ويمضى الكواكبي بعد أن يوضح لبنى قومه ما هم فيه من ظلم
الذين تحكموا في رقابهم يمضى فيقول :

أيها الوطن العزيز : هل ضاقت رحابك عن أولادك ، أم
ضاقت أحضانك عن أفلاكك ؟ . . . كلا انما فقدت الأبوة ، فقدت
الحماة ، فقدت الأحرار .

أيها الوطن الملهب فؤاده : اما رويت من سقيا الدموع
والدماء ؟ ولكن دموع بناتك الشاكلات ودماء ابنائك الأبرياء ،
لادموع النادمين ولا دماء الظالمين . الا فاشرب هنيئا ولا تأسف على

البله الحاملين ، ولا تحزن فمأهم كرائما وكراما ، لسن هن كرائما
ياكيات محمسات ، وليسوا هم كراما أعزة شهداء ، انما هم غفر
الله لهم ، من علمت ، قل فيهم الحر الغيور ، قل فيهم من يقول أنا
لا أخاف الظالمين .

أيها الوطن الحنون ، كون الله عناصر أجسامنا منك ، وجعل
الأمهات حواضن ، ورزقنا الغذاء منك ، وجعل الممرضعات مجهزة ،
نعم ، خلقنا الله منك ، فحق لك أن تحب أجزاءك وأن تحن على
أفلاكك . كما يحق لك فحق شرع الطبيعة أن لا تحب الأجنبى الذى
يابى طبعه حبك ، الذى يؤذك ولا يواليك ، ويزاحم بنيك عليك
ويشاركهم فيك ، ويتقل الى أرضه ما فى جوفك من نفيس العناصر
وكنوز المعادن فيفكرك ليغنى وطنه ولا لوم عليه بل بارك الله
فيه ! ..

ياقوم جعلكم الله خيرة اليوم وعدة الغد ، هذا خطابى اليكم
فما هو الترقى وما هو الانحطاط فان وعيتم ولو شذرات فيا بشرى
والسلام عليكم . . . »

وهكذا يمضى الكواكبي رائد الحركة العربية الحديثة يؤدي
دوره فى ايقاظ قومه حتى شبهه البعض بجان جاك روسو
ومونتسكيو وفولتير وغيرهم من كتاب الثورة الفرنسية .

ولم يسبق أحد الكواكبي فيما دعا اليه هذا الكاتب الكبير
كما أنه فاق كثيرين ممن جاءوا بعده ، فاذا قارناه بتنجيب عزورى
وهو الذى ألف سنة ١٩٠٥ كتابا أسماه ، يقظة الأمة العربية فى
آسيا التركية) نجد أن أثر الكواكبي فى أمته كان أكبر ودوره كان
أعظم . ذلك ان نجيب عزورى أقام فى باريس وخاطب قومه من
عاصمة أجنبية بعيدة عنهم كما أنه وصفه باللغة الفرنسية حتى

ان البعض يؤكد ان الشباب العربي لم يهتم بدعوته . (١)

ومضت دعوة الكواكبي تفعل فعلها في نفوس أبناء الأمة العربية فكانت جهودهم في مقاومة السلطان عبد الحميد الثاني حتى سقط عن الحكم بعد ان اضطر تحت ضغط الثوار الى اعلان اعادة العمل بالدستور سنة ١٩٠٨ . وفرح العرب باعلان الدستور وأقيمت الزينات والمهرجانات في بيروت حيث لحن موسيقار عربي من أهالي بيروت وهو وديع صبرا نشيدا وطنيا رائعا كما غمرت بغداد هي الأخرى وغيرها من العواصم العربية الأفراح بهذا الدستور الذي جاهد العرب كثيرا في سبيل اعادة العمل به . فلما استعدي السلطان عبد الحميد القوى الرجعية على الثورة هذا الدستور بادر العرب الى العمل مع أعضاء الاتحاد والترقي لعزله .

وحين تنكر الاتحاديون لكل جهود العرب فيما بعد ومضوا في اتباع السياسة الطورانية التي استهدفت تنريك الوظائف واستعلاء العنصر التركي لم يرضخ العرب لهذه السياسة الحمقاء ومضوا يقاومون ذلك فكانت مطالبهم ومؤتمراتهم التي من أهمها مؤتمر باريس الذي عقد سنة ١٩١٣ والذي اشترك فيه ممثلون عن مختلف الجمعيات العربية المختلفة في مختلف المدن العربية وعن مهاجري العرب في المكسيك والقيت فيه ابحاث ممتازة عن القومية العربية . ولم ير الاتحاديون بدا من الاسراع بالاتفاق مع العرب وعلى وجه التحديد مع ممثليهم وبعض رؤسائهم في هذا المؤتمر ومن أهم ماتضمنه الاتفاق اعترافهم بأن يكون التعليم الابتدائي والثانوي باللغة العربية في جميع البلاد العربية وان يكون تعيين اثنين من العرب عن كل ولاية عربية في مجلس الأعيان .

(١) الامير مصطفى الشهابي : محاضرات عن القومية العربية ص ٥٩

الا أن الحوادث التي توالى بعد ذلك ولا سيما اعلان الحرب العالمية الأولى دفعت بالأتراك الى عدم تنفيذ كثير مما اتفقوا عليه مع ممثلى العرب وجاءت الثورة العربية بقيادة الشريف حسين بعد اتصال الجمعيات العربية فى سورية به وبعد اتصاله هو الآخر بها بإيفاد ابنه فيصل اليها لتقطع كل تقارب وتفاهم بين العرب والأتراك . وقدم جمال باشا الى المشنقة كثيرين من الزعماء العرب مثل عبد الكريم خليل ، عبد الحميد الزهراوى وكان عبد الكريم خليل أول من وقف على كرسى المشنقة فى ٦ مارس ١٩١٦ قال بصوته الجهورى .

أشهدكم أيها القوم أننا لم نأت أمرا فريا يوجب وقفنا هذه ، وانى آسف على ما أظهرته من الاخلاص للدولة منذ نشوب الحرب ، ولكن الاتحاديين أبوا الا ان يعلنوا عداوتهم لهذا العنصر الكريم الذى لا يملك من أمره شيئا واذا كان جمال باشا يتهمنا باضرار الثورة لاستقلال العرب ، فلا بد من ضحايا لهذا الاستقلال ولكن نحن أول هذه الضحايا . »

واندلعت الثورة العربية بعد هذه المجازر التى قام بها جمال باشا فى سوريا ضد الأحرار العرب ، واذا كانت هذه الثورة لم تحقق ما كان يرجى من وارثها أو أنها تنكبت الطريق حين وضعت يدها فى يد الانجليز كى تتخلص من الأتراك فكانت كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فليس هذا مما يقلل من دورها ومن دور الذين بذروا بذورها ولن ينسى التاريخ ذلك الرعيل الأول من الكتاب العرب الذين استنهضوا الهمم ودعوا الى التحرر وبشوا روح الأمل فى النفوس وعلى راس هؤلاء يقف كاتبنا الكبير السيد عبد الرحمن الكواكبي .



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الخامس

الكرابي من خلال آناه الخالدة
(دراسة لكتابيه أم القرى)

يجمع المؤرخون أن الكواكبي خلد عملين عظيمين فاق بهما
كثيرين غيره من الكتاب وهما كتابيه (أم القرى) و (طبائع
الاستبداد) .

ولقد جاء كتابه أم القرى صيحة مبكرة لليقظة العربية الحديثة
لم يسبقه اليها أحد غيره من الكتاب العرب في ذلك الحين . وليس
أدل على الابتكار وأوضح في اظهار شخصيته وسعة أفقه وخياله
من هذا الكتاب . وقد وضع الكواكبي هذا الكتاب قبل كتابه طبائع
الاستبداد . فيقول صديقه كامل الغزي أنه اطلع على الكتاب قبل
رحيله الى مصر . ويقول الاستاذ رشيد رضا في مجلة المنار
سنة ١٩٠٢ العدد الخامس ولما هاجر الى مصر كان أول أثر له فيها
طبع سجل جمعية أم القرى ، وكان يقول ان لهذه الجمعية أصلاً
وأنه توسع في السجل . ونقحه ست مرات آخرها عند طبعه
منذ سنتين ونيف أى عقب قدومه الى مصر . وقد قال لنا مرة ان
الانسان يتجرأ أن يقول ويكتب في بلاد الحرية ما لا يتجرأ عليه في
بلاد الاستبداد ، بل ان بلاد الحرية تولد في الذهن من الأفكار
ملا يتولد في غيرها » .

ومعنى هذا ان الكواكبي ألف كتابه أم القرى قبل أن يغادرها
الى مصر لكنه أدخل عليه كثيراً من التعديلات بعد قدومه الى مصر
ونشره سنة ١٩٠٠ ثم نشره الاستاذ رشيد رضا في مجلة المنار
سنة ١٩٠٢ . اتفق رشيد رضا مع الكواكبي حين بدأ نشر كتابه

أن يحذف منه ما يراه ماسا بالدولة العثمانية • ووافق الكواكبي
لكن رشيد رضا عاد فعدل عن ذلك ونشر كتاب أم القرى كاملا •
فقال فى العدد الخامس من مجلة المنار سنة ١٩٠٢ « انتهى كتاب
سجل جمعية أم القرى وما ألحق به • وقد كنا اتفقنا مع جامعة
السيد الفراتى (تغمده الله برحمته) على نشره فى المنار بتصرف
يختص بتصحيح عبارته وحذف مساوئ الدولة العلية أيدها الله
تعالى منه ، ثم استحسن فضلاء القراء عدم حذف شىء منه فللمطالعين
على ما نشرناه من أول سنة المنار الى الآن أن يثقوا أنهم أطلعوا على
هذا السجل كله بعبارة أصح الا جملة واحدة ذكر فيها خديو مصر
بأنه يرجو مساعدة الجمعية • (١)

ما هى هذه العبارة التى لم يوافق رشيد رضا على نشرها
فى كتاب أم القرى ؟ عبارة وردت على لسان رئيس جمعية أم القرى
بعد انتهاء جلسات الجمعية ، ان جمعيتنا هذه اختارت أن تجعل
مركزها المؤقت فى مصر دار العلم والحرية ، فلها أمل قوى فى أن
حضرة العزيز (عباس الثانى) يكون عضوا للقائمين باعزاز الدين
وحاميا فخريا للجمعية • ولا بدع فانه خير أمين شاب نشأ على
الغيرة الدينية والحمية العربية » (٢) •

كذلك ذكر السيد رشيد رضا أنه لم تنشر جدول المخاطبة
الرمزية أى الرموز التى اتفق الأعضاء أن تكون رموزا لهم يتخاطبون
بها (٣) •

(١) يقول الاستاذ سامى الدهان فى كتابه عبد الرحمن الكواكبي ان رشيد
رضا حذف من جمعية ام القرى ما هو ماس بالدولة العلية (ص ٥٥ من كتاب
الدهان) وهذا غير صحيح باعتراف رشيد رضا نفسه •

(٢) ص ١٨٨ من نسخة الكتاب الذى نشرته المكتبة التجارية الكبرى سنة

١٩٣١ •

(٣) ص ١٦٥ من نفس النسخة •

لعل السبب فى احجام رشيد رضا عن نشر العبارة التى تتضمن أمل جمعية أم القرى فى تأييد الخديو لها هو أن العلاقة بين رشيد رضا والخديو عباس الثانى فترت بعد أن توثقت مثلما فترت علاقة الخديو مع الامام محمد عبده . كان رشيد رضا من أصفى أصفياء الخديو يقابله دون موعد كما سبق لنا أن أشرنا من قبل بل ربما جاء تعرف الكواكبي للخديو عباس عن طريق رشيد رضا . هاجم رشيد تخلى عباس عن سياسة الحزم مع الانجليز وخاصة حادثة استعراض الخديو للجيش المحتل فى ساحة قصره والوقوف تحت العلم البريطانى فى يوم الاحتفال بعيد ملك الانجليز تزلفا منه وتقربا للعميد البريطانى . وكانت مجلة المنار قد وقفت بإخلاص الى جانب الشيخ محمد عبده المفتى تنشر فتاويه وتدافع عنه ضد أكاذيب الخديو والمحيطين به وخاصة تلك الصورة التى نشرها بعض المغرضين وزعموا انها لمحمد عبده فى حلبة رقص يخاصر فتاة أجنبية وكلبها يعبث بأطراف جنته . ولما كان من الواضح ان الصورة مزيفة حيث لفق المصور صورة واحدة جمع فيها صورا متفرقة لمحمد عبده وصورة أخرى لفتاة فجمعهما فى صورة واحدة .

انبرى رشيد رضا يدافع عن الامام محمد عبده وانبرت بعض الصحف الأخرى المؤيدة للخديو ومنها صحيفة المؤيد تدافع عن الخديو ضد تهجم رشيد رضا عليه لاستعراضه للجيش الانجليزى (١) .

وقبل أن تصل العلاقات بين رشيد رضا والخديو عباس الى حد القطيعة سبقتها فترة أخرى كانت العلاقات فيها فاترة تماما فآثر رشيد رضا أن يحذف من جمعية أم القرى ما قد يفسر

(١) عباس العقاد : محمد عبده ص ١٧٦ .

أنه يسىء للعلاقة بين الحديو والسلطان العثماني بنشره ما يفيد تأييد الحديو لهذه الجمعية .

كذلك نجد أن النسخة التي نشرتها المكتبة التجارية بالقاهرة سنة ١٩٣١ جاءت ناقصة في نهايتها عما أورده السيد رشيد رضا في مجلته المنار العدد الخامس سنة ١٩٠٢ فقد جاء في نهاية مانشره رشيد رضا عن هذه الجمعية ما يلي :

تذكرة : من السيد الفراتي (كاتب الجمعية) بأنه ربما يتأخر تشكيل جمعية تعليم الموحدين (وهي الجمعية التي انتهى الى ضرورة تشكيلها المؤتمر الاسلامي الذي تخيل الكواكبي عقده في مكة أم القرى على نحو ما سنتناوله فيما بعد) ، فالمأمول - الجمعيات الاسلامية الموجودة في الهند وفازان والقرم ومصر وغيرها ألا تأتف من تنوير أفكارها بمباحث هذا السجل فتقتبس منه ما يناسبها وتتخذ القانون والوظائف مثالا وذكرى . ثم رجاء من الكواكبي يقول فيه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وعنده شمم حمية ومروءة فلا يتجسس عن جمعيته أم القرى وأعضائها بقصد ايصال سوء اليها ، وليعلم ان يده وان طالت الأفلاك أكثر من الاضرار بها لأن الجمعية في أمان الاخلاص ولا يحيق المكر السييء ألا بأهله ثم تذييل آخر بعنوان تهوين : ليعلم اسراء التقليد وورثة الأوهام ومعظمو العظام ومؤلهو الطغام ان تألمهم من صدقة بعض هذه المباحث لما ألفوه عمرهم هو تألم مباغت لا يلبث أن يزول متى خلوا بعقولهم وحكموا الحكمة والانصاف وتأملوا حق الايمان وناطق القرآن وحينئذ ينجلي لهم الحق ويندمون كما ندم مثلهم الأولون فيتوبون ويتوب الله عليهم والله يهدي من يشاء . ثم يتبع الكواكبي ذلك **بإعلان** من أحب أن ينجد مقاصد جمعية أم القرى برأى فائق أو عمل مهم أو رغب في تعضيدها بجاه أو مال أو أراد مراسلة الجمعية أن يرسل وكالة الجمعية بدون اسم بل بارسال كتاب بعنوان

الى مدينة - الى صندوق البوستة عدد - واذا أراد التخفى يمكنه أن يكاتبها أولا باسم له مختلق ثم يستعمل الكتابة الجبرية الموضحة فى الجدول المذيل به هذا السجل . والذين يرجى منهم تعضيد مهم كحضرات الأمراء العظام والأغنياء الكرام فلهم أن يطلبوا رسولا من قبل الجمعية ليوضح لهم ما يستوضحون . (انتهى) .

وبعد أن عرضنا لأوجه الاختلاف بين بعض الطبقات فى كتاب أم القرى نعود لنلقى عليه دراسة تبين قيمة مؤلفه وجهده وما تركه من أثر خالد لا ينكر على مر الأيام والأزمان .

وضع الكواكبي لكتابه عنوان (أم القرى) وهى مكة المكرمة التى تخيل فيها عقد جمعية من فضلاء المسلمين لبحث أسباب تدهور أحوالهم وتقرير الدواء بعد تشخيص الداء . وذكر أن مؤلف الكتاب هو السيد الفراتي وهو ما تبنى به الكواكبي . وناشد قراء كتابه الصبر حتى ينتهوا من قراءته حتى نهايته والا يتعجلوا نقده قبل أن يسئروا مطالعته فقال أيها الواقف على هذه المذكرات .

أعلم انها سلسلة قياس لا يغنى أولها عن آخرها شيئا وأنها حلقات معان مرتبطة مترقية لا يغنى تصفحها عن تتبعها . فان كنت من أمة الهداية وفيك نشأة حياة ودين وشمة ومروءة فلا تعجل بالنقد حتى تستوفى مطالعتها وتعى الفواتح والحوادث ثم شأنك ورأيك . أما اذا كنت من أمة التقليد واسراء الأوهام بعيدا عن التبصر لا تحب أن تدري من أنت وفى أى طريق تسير وما حق دينك ونفسك عليك وإلى ماذا تصير فتأثرت من كشف الحقائق ودبيب النصائح وشعرت بعار الانحطاط وثقل الواجبات فلم تطق تتبع المطالعة وتحكيم العقل والنقل فى المقدمات والنتائج فأناشدك الأهمال الذى الفته أن تطرح هذه المذكرات الى غيرك ليرى فيها رأيه - السيد الفراتي .

ثم يقدم الكواكبي لكتابه بوصفه للعهد الذى كتب فيه كتابه (القرن الرابع عشر الهجرى - أواخر القرن التاسع عشر) عهدا عم فيه الحلل والضعف كافة المسلمين « وكان من سنة الله فى خلقه أن جعل لكل شىء سببا ، فلا بد لهذا الحلل الطارىء والضعف النازل من أسباب ... دعت الجمعية بعض أفاضل العلماء والسراة والكتاب السياسيين لبحث وسائل النهضة الاسلامية فأخذوا ينشرون آراءهم فى ذلك فى بعض الجرائد الاسلامية الهندية والمصرية والسورية والتتارية . وقد اطلعت على كثير من مقالاتهم الغراء فى هذا الموضوع الجليل واتبعت أثرهم بنشر ما لاح فى حل هذا المشكل العظيم » .

ثم يذكر ما أتيح له من سياحة زار فيها البلاد العربية لاستطلاع الأفكار وتهئية الاجتماع فى موسم أداء فريضة الحج . ومن الواضح أن الكواكبي كان يعلق أهمية كبيرة على موسم الحج كموسم التقاء المسلمين من كافة بقاع الأرض لأداء هذه الفريضة الغراء والتي كان أحد أسباب فرض الله سبحانه وتعالى لها لعباده المسلمين أن يشهدوا منافع لهم . ومن ثم فإن أول هذه المنافع هو بحث العلة وتشخيص المرض النازل بالمسلمين والعمل على علاجه . وتخيل الكواكبي انه فى زيارته للبلاد الاسلامية المختلفة دعا من يلتبس فيه الاخلاص لدينه وأمته ورجاحة العقل وأنه عاد بعد دعوته لهؤلاء الى مكة فوجد ان بعض من دعاهم قد سبقه الى مكان الاجتماع . واختار لمكان الاجتماع حيا متطرفا من أحياء مكة لاترقبه العيون واستأجر هذه الدار باسم غير اسمه لتكون مضمونة من الرقابة والتجسس .

وبدا انعقاد المؤتمر الذى ضم ممثلين للبلاد الاسلامية بما فيها بعض البلاد التى لم يزرها الكواكبي مثل مراکش وتونس . وانهقد المؤتمر من منتصف شهر ذى القعدة سنة ١٣١٦ هجرية

حتى نهايته فى اثنى عشر اجتماعا غير اجتماع الوداع حيث جرت فى هذه الجلسات « مذكرات مهمة صار ضبطها وتسجيلها بكمال الدقة كما سيعلم من مطالعة هذا السجل المتضمن كيفية الاجتماعات مع جميع المفاوضات والمقررات غير ما آثرت الجمعية كتبه كما سيشار اليه » .

بلغ عدد المجتمعين كما تخيلهم الكواكبى ثلاثة وعشرون عضوا بما فيهم السيد الفراتى الذى عهد اليه كتابة محاضر الجلسات . وتولى رئاسة الاجتماعات العضو المكي على أساس أن المؤتمر منعقد فى بلده . واتخذ المجتمعون شعارهم (لا نعبد الا الله) ، وتعاهدوا على الجهاد والأمانة . ووضع الرئيس منهج البحث وهو الكتمان فهو أدعى الى افاضة كل بما فى نفسه صراحة . ودعاهم أن يتركوا اندماجهم جانبا ويعتمدون على صريح الكتاب وصحيح السنة حتى لا تتفرق بهم الآراء .

وحين وضع الكواكبى كتابه حث المسلمين على عدم اليأس فهو يورد على لسان رئيس الجمعية أنه لا داعى لليأس « لأن محض انعقاد جمعيتنا هذه لمن أعظم تلك المبشرات خصوصا اذا وفقها الله تعالى بعنايته لتأسيس جمعية قانونية منتظمة . . . (١) » .

ونلاحظ أن الكواكبى يهتم بنظام الجمعيات فهى عنده ، تقوم بالعظائم وتأتى بالعجائب وهذا هو سر نشأة الأمم الغربية . وهو بهذا مثلا يشير الى الجمعيات الثورية الايطالية التى لعبت دورا فى الوحدة والاستقلال الايطالين ، ومنها جمعية الكاربونارى الايطالية التى كان هدفها مقاومة الاستبداد فى كل أشكاله (٢) .

(١) الكواكبى - أم القرى ص ١٥ ط سنة ١٩٣١ المكتبة التجارية .

(٢) التاريخ الاوروبى الحديث لهربرت فيشر ترجمة نجيب هاشم ووديع

والمعروف ان الكواكبي كان من المعجبين بزعماء الحركة الايطالية فهو يقول ومن أين لنا زعيم (ملزم) كغاريبا لدى يوفق بين أمرائنا أو يلزمهم بجمع كلمتنا .

يرى الكواكبي ان الغلبة للجماعة « وان مبدأ أعظم الأعداد اثنان فذلك مبدأ الجمعيات شخصان ثم تتزايد » . وهو يأمل لهذا الشرق بجمعية تكون وظيفتها الاساسية أن تنهض بالأمة من وهدة الجهالة وترقى بها في مغارج المعارف متباعدة عن كل صبغة سياسية .

ثم يحدد الرئيس المسائل التي ستبحثها الجمعية في عشر مسائل رئيسية : موضع الداء - أعراضه - جراثيمه ثم وصفه . يتبع ذلك وسائل استعمال الدواء ثم ما هو الاسلام الصحيح أو ما هي الاسلامية ، ثم كيف يكون التدين بالاسلامية . أخيراً . ما هو الشرك الخفى وكيف تقاوم البدع وسن قانون لتأسيس جمعية تعليمية تسمى بجمعية تعليم الموحدين .

واستمرت اجتماعات الجمعية يومية فيما عدا يومى الثلاثاء والجمعة وكانت جلساتها تدوم من الصباح حتى قرب موعد صلاة الظهر حيث ينصرف الأعضاء لتأدية فريضة الصلاة ثم يواصلون اجتماعهم فى اليوم الذى يليه .

وحين ينتهى الكواكبي من اجتماعات جمعياته الى اقرار ضرورة وجود جمعية تعليمية هى التى أسماها جمعية تعليم الموحدين كان أشبه ما يكون بالامام محمد عبده حين اختلف مع الأفغانى فى نظريته للاصلاح . رأى محمد عبده بعد أن عمل والأفغانى معا فى اصدار جريدة العروة الوثقى أن التربية والتعليم والعمل فيها أجدى من العمل فى السياسة « عرضت عليه (على الأفغانى) حين كنا فى باريس أن نترك السياسة ونذهب الى مكان بعيد عن

مراقبة الحكومات نعلم ونربي من نختر من التلاميذ على مشربنا
فلا تمضى عشر سنين الا ويكون عندنا من التلاميذ الذين يتبعوننا
فى ترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الاصلاح المطلوب فينتشر
أحسن الانتشار فقال انما أنت مثبط (١) .

وواضح أن الكواكبى كان يعلق على التعليم والارشاد
والتثقيف ما كان يعلقه الأستاذ الامام محمد عبده . وكان الكواكبى
على اتفاق فى ذلك مع محمد عبده وكان (الكواكبى يثنى على الامام
الثناء كله ، فقد كان يعتقد أن الامام محمد عبده أعلم من أستاذه
الأفغانى وقد خالفه رشيد رضا فى ذلك فقال وهذا غلط منه (٢) .

كان الكواكبى يعلق أهمية كبيرة على تشخيص الداء الذى
ابتلى به المسلمون فى أيامه ، وأن ذلك كفى بتقرير الدواء ، فان
الطبيب الناجح هو الذى يتوصل الى معرفة الداء وانه حين يعقل
ذلك لا يستعصى عليه علاج مريضه . من أجل هذا استغرق تحديد
موضع الداء وأعراضه ثلاثة اجتماعات متصلة من اجتماعات
الجمعية .

تشخيص الداء :

بدأ الأعضاء فى اجتماعهم الثانى فى تشخيص الداء أو الفتور
العام الذى نزل بالمسلمين كما وصفه رئيس الجمعية وقبل أن يدلى
كل بدلوه ذكرهم الرئيس بعدم التعقب لرأى ذاتى أو الاصرار
عليه أو الانتصار له على أساس أنهم باحثون لا متناظرون ثم اتفقوا
على أنه اذا أعجبهم رأى المتكلم أثناء خطابه فلا بأس من التعليق
عليه بلفظ مرحى وهو لفظ الاستحسان .

(١) عباس العقاد : محمد عبده ص ١١٦

(٢) رشيد رضا : تاريخ محمد عبده ج ١ ص ١٠٥ .

ثم أخذوا بعد التسليم بوجود المرض يبحثون في أسبابه
وذهبوا في ذلك مذاهب شتى فالكواكبي يرى أن أول الأسباب هو
ما أصاب المسلمين من عقيدة جبرية • ويورد ذلك على لسان العضو
الشامل • فهذه العقيدة في القضاء والقدر آلت الى الزهد في الدنيا
والقناعة باليسير والكفاف من الرزق واماتة المطالب النفسية كحب
المجد والرياسة والاقدام على عظام الأمور والترغيب في أن يعيش
المسلم كميت قبل أن يموت • والعقيدة بهذا الشكل مشبطة معطلة
لا يرضاها عقل ولم يأت بها شرع • ويخشى الكواكبي أن يفسر
كلامه هذا على أنه ضد الزهد الذي جاء به الاسلام فيورد على لسان
العضو القدسي ترغيب للناس في الأثرة العامة أى تحويل المسلم
ثمرة سعيه للمنفعة العمومية دون خصوص نفسه • ثم يمضى
العضو القدسي (ممثل مدينة بيت المقدس) ان سبب الفتور هو
تحويل نوع السياسة الاسلامية من ديموقراطية الى استبدادية
فأفسدت العقول وأماتت الأخلاق •

وبعد أن يبدي الأعضاء اعجابهم بما ذكره القدسي بذكرهم
كلمة مرحى كما اتفق على ذلك فيما بينهم ، يبادر العضو التونسي
يقول ان بعض الأمم الأوربية محكومة بحكومة استبدادية ولم يمنع
ذلك من تقدمها ، وانما السبب في نظره الأمراء المترفون الأخسرون
اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون
صنعا • فمنهم (الأمراء) من بلغ جهله درجة أحط من درجة الكائنات
الحية الأدنى درجة من الانسان • فهذه الكائنات الحية لها نوااميس
وطبائع تحمى زمارها وتمنع عن حدودها • بينما هؤلاء الأمراء ليس لهم
طبائع ولا نوااميس يخربون بيوتهم بأيديهم وهم لا يشعرون •
وهناك بعض الأمراء من هو ضال على علم فنجدهم يشكون ويبكون
مع أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم يظهرون الرغبة في

الإصلاح ويبطنون الإصرار والعناد على ما هم عليه من فساد دينهم
ودنياهم .

أما العضو الرومى فىرى ان السبب الحقيقى لما فيه المسلمون
اليوم هو فقدهم الحرية بجميع أنواعها . ويضع الكواكبى ملاحظة
تفيد بأن العضو الرومى هذا هو من أهل القسطنطينية الذين حرم
عليهم مجرد التلفظ بكلمة حرية وجمعية ووطن . وهو بهذا يشير
الى ما فرضه السلطان عبد الحميد الثانى من استبداد فاق فى قوته
أى نوع من الاستبداد الآخر حتى أصبح الإنسان يحاسب على
الكلمة ولو لم يقصد بها شيئاً فبمجرد ذكر كلمة حرية أصبحت من
الكلمات المنوع استخدامها وكذلك ذكر قتل واغتيال ملك
أو أمير (١) .

ويمضى الكواكبى فى القول على لسان العضو الرومى ان
المسلمين حرموا من الحرية بكافة أنواعها حرية التعليم والخطابة
والبحث العلمى . ومما لا شك فيه ان الحرية أعز شئ على الإنسان
بعد حياته وأنه بفقدانها تفقد الآمال وتبطل الأعمال وتموت النفوس
وتتعطل الشرائع وتختل القوانين بينما كان هناك المسلمون الأوائل
لا يخافون من الخليفة فيخاطبون أمير المؤمنين بقولهم يا عمرو
ويا عثمان . « فصرنا ربما نقتل الطفل فى حجر أمه ونلزمها
السكوت فتسكت ولا تجسر أن تزعج سمعنا بكائها عليه » .

(١) يورد الأستاذ ساطع الحصرى فى كتابه البلاد العربية والدولة العثمانية
ص ١٠٠ حادثة طريفة تفيد انه حين قتل ملك الصرب فى بلغراد منع السلطان
عبد الحميد ذكر الخبر ونشرت الصحف الحادث على أنه موت طبيعى كما أرسلت
وزارة الداخلية الى جميع الولايات برقيات مستعجلة لمنع دخول جميع الجرائد
الأجنبية التى نشرت خبر الاغتيال وذلك حتى لا يخطر على بال أحد من رعية الدولة
امكان اغتيال ملك من الملوك . وعلى هذا النحو كان عبد الحميد يذهب الى التفكير
فى أبعد الاحتمالات .

وبينما يرى العضو الرومى أن فقدان الحرية سبب الفتور والتقاعس عن كل صعب وميسور ، يرى العضو التبريزى أن السبب ترك المسلمين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « مع أن إزالة المنكر فى شرعنا تكون بالفعل فان لم يكن فبالقول فان لم يكن فبالقلب » . . .

ثم يتناول الكلمة العضو الفاسى أن شريعة السلف الصالح كانت شريعة سمحاء واضحة المسالك فكان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وظيفة لكل مسلم ومسلمة .

كان الكواكبى يريد أن يعود الدين الى بساطته الأولى الغابرة والتى أوحى بها النبى صلى الله عليه وسلم على اعتبار أنه الأصلح للمجتمع الاسلامى . وكان العرب آنذاك يجاهرون بعدائهم لحكم الفرد وكرههم له ويرثون لحال الأمم التى وضعت نفسها تحت رحمة رجل واحد وكانوا يمقتون الاستبداد الذى هو أصل كل بلاء . كان الخليفة فى صدر الاسلام ينتخب ولكل مسلم حسن الخلق سديد رأى حق الانتخاب وكان حفل تنصيب الخليفة يعرف بالبيعة وهو عمل طوعى مؤداه الاعتراف بالخليفة والولاء له . وكان الخليفة يعتبر الأول بين أئداده . فالناس يخاطبونه باسمه دون أى لقب وتفخيم . وفى كتب الأخبار العينية سنة ٧١٣ م حدثت زيارة وفد عربى من اثنى عشر شخصا الى البلاط الامبراطورى فأحدثت تصرفاتهم دهشة لدى الامبراطور وحاشيته عندما مثل أعضاء الوفد بين يدى الامبراطور ورفضوا السجود له (١) . ذلك أن الشعور بكرامة الانسان كانت متأصلة فى نفوس العرب الى درجة أنهم لم يكونوا يتصورون انسانا يذل نفسه أمام أحد غير الله سبحانه عز وجل .

(١) د . نجلاء عز الدين العالم العربى ص ٤٦ ترجمة د . محمد عوض محمد

ثم تناول الكلمة العضو الفاسى فذكر أن سبب فتور المسلمين هو اهمالهم الاهتمام بالدين ويمجد الاسلام فى أيامه الأولى على عهد السلف الصالح حين كانت الشريعة سمحاء واضحة المسالك معروفة الواجبات والمناهى فكان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وظيفة لكل مسلم ومسلمة ؛ « ثم دخل فى ديننا أقوام ذوو بأس ونفاق أقاموا الاكتساب مكان الاحتساب • وحصروا اهتمامهم فى الجباية واستخدموا لذلك جندهم ، وادى انحصار الأمراء الدخلاء فى الجباية والجندية لاهمال الدين كلفة ••• ولم يبق للدين عندهم من أثر الا على رعوس الألسن » •• ولم يعد يتمسك الأمراء بالدين الا بقصد تفسير الآيات تفسيراً يمكنهم من بسط سلطانهم على الضعفاء مثل قوله تعالى :

(أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وقوله تعالى :
(وجاهدوا فى سبيل الله) ، مع اغفالهم ان الجهاد المأمور به ما يستحصل اعزاز كلمة الله •

وقد كان المسلمون أعزاء يوم توثقت الرابطة الدينية بينهم فلما انحلت ضاعت الأخلاق ففتروا وخمدوا •

ويتمنى الكواكبي أن تقوى الرابطة الدينية بين المسلمين كسبيل الى تقوية الرابطة بينهم ثم هو يرى ان فقد الرابطة الدينية ليست سببا للفتور العام وحدها بل يؤكد على لسان العضو المدنى (الممثل للمدينة المنورة) ان الطاقة الكبرى جاءت من العلماء المدلسين •

وللكواكبي موقف معروف مشهور بين العلماء الدينيين الذين نسوا وظيفتهم الهامة وهى انهم يحكم كونهم ورثة الأنبياء عليهم واجب الهداية الحقبة الخالصة من كل الشوائب الباطلة •

يرى الكواكبي انه نظرا لما للعلماء من مكانة اجتماعية مرموقة

فقد ظهر من ينافس هؤلاء العلماء • لكنه يرى أن هؤلاء المنافسين للعلماء هم قوم مدعين العلم مدلسين على المسلمين بتأويل القرآن مالا يحتمله فادخلوا من البدع فى الدين ما ليس فيه كالعلم الملدنى وترتيب المقامات ووراثة السر والرهينة وأصبحوا كرجال الكهنوت فى مراتبهم وتميزهم فى ألسنهم •

ومن المعروف أن الكواكبى حمل حملة شعواء على أولئك المتصوفين الذين جاءوا الى الدين بما ليس فيه •

يقول الأستاذ رشيد رضا وهو يؤرخ للأستاذ الامام محمد عبده • طالما فكر محبو الاصلاح من عقلاء المسلمين فى اصلاح شأن المنتمين الى طرق الصوفية وانقاذهم من خيالاتهم الفاسدة ، وبدعهم الفاضحة ، بل اخراجهم من جحر الضب الذى دخلوه وهم لا يشعرون فلم يهتد أحد الى ذلك سبيلا • ولما هاجرت الى مصر سنة ١٣١٥ هـ كان أول اصلاح سعيت اليه أن حاولت اقناع شيخ مشايخ الطرق الصوفية الشيخ محمد توفيق البكرى بالقيام بهذا الاصلاح • • • • • وقلت له مرارا ان الاصلاح لا يقوم الا برجال من أهل العلم الصحيح والأخلاق والغيرة والاستقامة يناط بهم أمر هذه الطرق • ثم علمت بعد طول السعى أن ما حاولت الاستعانة بهذه السلطة الرسمية على هذا الاصلاح الروحى يكاد يكون محالا • • • • •

ويمضى السيد رشيد رضا يقول : وقد جرت المذاكرة فى ذلك بينى وبين صديقى السيد عبد الرحمن الكواكبى ، وكان يرى ان اصلاح هذه الطرق أو الاصلاح من بابها محال • فقلت أرأيت اذا اقنعنا بعض اخواننا الصادقين فى حب الاصلاح العالمين بطرق الارشاد بأن يكونوا شيوخا لهذه الطرق المشهورة - ألا يستطيعوا أن يقفوا بعادة أهل طريقتهم عند حدود السنة ويربوا طائفة من المريدين تربية جديدة ؟ فقال (الكواكبى اننا جربنا ذلك فى حلب

فأقنعنا رجلا من أمثال هؤلاء الذين تعنيهم. بنحو ما ذكرت فكان عاقبة أمره معهم أن أفسدوه ولم يصلحوه وأنس بهذه الرياسة وآثرها فخرناها بها » (١) .

ومضى الكواكبي يحمل على أولئك الذين ادعوا التصوف فقال « ومن العادة أن يلجأ ضعيف العلم الى التصوف كما يلجأ فاقد المجد الى الكبر وكما يلجأ قليل المال الى زينة اللباس والأثاث (٢) .

ونمضى مع الكواكبي في كتابه أم القرى وهو يحمل حملة عنيفة على هؤلاء الذين سماهم بالمدلسين الذين سحروا عقول الجهلاء فجعلوا التعبد لهوا ولعبا وذلك أهون على النفس والطبع من القيام بتكليفات الشرع كما وصف الله تعالى عبادة المشركين فقال (وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية) أى صفيرا وتصفيقا وهؤلاء (المتصوفون) جعلوا عبادة الله تصفيقا وشهيقا وخلاعة ونعيقا .

ويذكر الكواكبي ان هذا الرأي الذى أبداه ممثل المدينة المنورة فى الاجتماع قد أيدته الأعضاء بذكرهم كلمة (مرحى) كما اتفق على ذلك فى بدء اجتماعاتهم .

ثم يضيف العضو الرومى الى ذلك ان الداء الدفين هو دخول الدين تحت ولاية العلماء الرسميين وبعبارة أخرى تحت ولاية الجهال المتعممين .

ويمضى الكواكبي على لسان العضو الرومى فى الاجتماع الثالث لجمعية يقول ان هؤلاء المتعممين فى البلاد العثمانية اتخذوا لأنفسهم قانونا سموه (طريق العلماء) وجعلوا فيه من الاصول

(١) رشيد رضا - تاريخ محمد عبده الجزء الاول ط . ص ١٢٩ .

(٢) الكواكبي - ام القرى ط المكتبة التجارية سنة ١٩٣١ ص ٣٥

ما أنتج منذ قرنين الى الآن ان يصير العلم منحة رسمية تعطى للجهال
حتى للأمين بل للأطفال ! *

ويحمل الكواكبي على السلطان عبد الحميد اغداقه الألقاب
على أناس لا يمتنون للعلم بشيء فيصدر المنشور الرسمي من قبله
ليصفهم بل ليصف بعضهم وهم ما زالوا أطفالا بأنهم أعلم العلماء
المحققين ثم اذا شب بعضهم عن الطوق يخاطب بأنه (أفضل
الفضلاء المدققين) (وأقضى قضاة المسلمين معدن الفضل واليقين
رافع أعلام الشريعة والدين وارث علوم الأنبياء والمرسلين) ويظل
السلطان يغدق عليه من الألقاب حتى يوصف (أعلم العلماء المتبحرين
وأفضل الفضلاء المتورعين ينبوع الفضل واليقين) الى آخر ما فى
تلك التأشير من الكذب المشين ! *

ويرى الكواكبي أن هؤلاء المتعممين قابلوا انعام السلطان
عليهم بهذه الالقاب بوصفهم اياه ومخاطبتهم له (بالمولى المقدس ذى
القدرة صاحب العظمة والجلال المنزه عن النظر والمثال وأهب الحياة
ظل الله خليفة رسول الله مهبط الهامات مصدر الكرامات سلطان
السلطين مالك رقاب العالمين ولى نعمة الثقلين وملجأ أهل الخافقين)
وكلها ألقاب شرك بالله وتؤدى الى غضبه وتدفع بقائلها الى التهلكة .

ويحمل الكواكبي على هؤلاء المدعين للعلم والعلم منهم براء
فبعضهم لا يحسنون قراءة نعتهم المزورة ! وبعضهم يشرك بالله
يلبسون كما كان يلبس كهنة الروم .

ويحمل على قضاة القسطنطينية أنهم أهملوا حكام الشرع
وجعلوا المناصب تباع وتشترى وقصروها على المتملقين المنافقين
وبهذا انحسرت الوظائف الدينية فى الجهلاء والمنافقين ولم يقتصر
الأمر على القسطنطينية وقضاتها من وجهة نظر الكواكبي بل ان كل
ولاية من ولايات الدولة العثمانية (بعد صدور قانون الولايات) أصبح

يشارك في مجلس إدارتها عام أو أكثر يحكم مع واليها فيما لم ينزل به الله كالربا وكثير من المسائل التي لا تتمشى مع تعاليم الشرع ثم يقول ، وكان الأليق والأنسب بالاسلامية أن يبقى العلماء بعيديين عن ذلك » .

كان الكواكبي يريد ان يكون عالم الدين حيث كان سلفه الصالح يتقرب له الحاكم ويهابه لا يتقرب هو للحاكم ويتملقه ، فاذا ما استبد الحاكم كان أول من يتصدى له العلماء يقفون في وجهه لأنهم حماة الدين وورثة الانبياء . ومن أجل هذا فالكواكبي لا يسمي هؤلاء الذين يعينون الأمير أو الحاكم على ظلمه ويجعلونه يعادى الشورى - بالعلماء وانما يسميهم المتعممين أى الذين ادعوا أنهم علماء وما هم من العلم فى شيء .

يقول الكواكبي « ومن أهم دسائس هؤلاء المتعممين أنهم ينفثون فى صدور الأمراء لزوم الاستمرار على الاستقلال فى الرأى وان كان مضرا ومعاداة الشورى وان كانت سنة ، المحافضة على الحالة الجارية وان كانت سيئة . ويلقون عليهم بأن مشاركة الامة فى تبرير شئونها وإطلاق حرية الانتقاد لها يخل بنفوذ الأمراء ويخالف السياسة الشرعية ... » (١)

ويخلص الكواكبي من ذلك الى القول ان هؤلاء الجهلاء الذين تمتعوا بمزايا العلماء العاملين واغتصبوا أرزاقهم - قد ثبطوا الهمم وقلت الرغبة لديهم فى تحصيل العلم فجعلوا تحصيله وسيلة للارتزاق وهكذا فسد العلم وقل أهله .

والكواكبي حريص على العناية بدراسة العلوم العقلية وخاصة العلوم الرياضية والطبيعية ويورد ذكر اهمال المسلمين لهذه العلوم على أنه السبب فيما عمهم من فتور وتخاذل ويود لو عنى المسلمون

بدراسة العلوم الطبيعية والحكمية لأصبحوا بعد الاكتشافات الجديدة
يؤمنون بالله عن يقين بعد أن تكشف لهم بفضل هذه العلوم كثيرا
من قدرته وعظمته ولا تضح لهم ان العلماء الأوربيين لم يأتوا بجديد
فى مكتشفاتهم فكل ما ذكروه قد أشار اليه القرآن الكريم . ويذكر
الكواكبى كثيرا من الامثلة على صدق هذا القول على لسان العضو
الكردى : « أضحى المسلمون محتاجين للحكمة العقلية التى كادت
تجعل الغربيين أدرى منا حتى فى مبانى ديننا كاستدلالهم بالمقايسة
على أن نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام أفضل العالمين عقلا وأخلاقا
وكاثباتهم بالمقابلة أن ديننا أسمى الديانات حكمة ومزية . وعندى
أنه لولا هذا القصور ما وقع المسلمون فى هذا الفتور .

ثم يطالب الكواكبى بعدم اليأس فهو يرى ان يأس المسلمين
من منافسة الامم الاخرى هو أحد أسباب التخلف فهو يطالب بالحث
والسعى وعدم الاستسلام لدعاة الجزع وأنصار التخاذل . وأهمية
دعوة الكواكبى أنها جاءت فى وقت ران اليأس فيه على النفوس
واستسلم الجزع فيه على القلوب فالبلاد العربية تقع تحت براثن
الاحتلال الاجنبى ، فالجزائر تحت الاحتلال الفرنسى ومعها تونس
ومصر والسودان تحت الاحتلال الانجليزى والبلاد العربية الاخرى
الواقعة تحت حكم السلطان عبد الحميد فى تخلف واستبداد لم
تشهد له مثيلا من قبل . ومن هنا تبدو أهمية دعوة الكواكبى التى
جاءت تبديد دياجير الظلام وتبشر بفجر من الأمل الكبير .

وتلمس الحماس وراء كل كلمة يكتبها الكواكبى فى هذا
المجال وتحس بالقوة وتشعر بالعظمة التى ملأت جوانب هذا الرائد
الكبير ، كنا علماء راشدين وكان جيراننا متأخرين عنا فعرفنا البقاء
فتمادوا واجتهدوا فلحقونا ولبثنا نياما فاجتازوا وسبقونا وتركونا
وراء رطال نومنا فبعد الشوط حتى صار ما بعد ورائنا وراء .
فصغرت نفوسنا وفترت هممتنا وضعف احساسنا فيئسنا من اللحاق
والمجاراة وخرجنا من ميدان المنافسة والمباراة والسنتنا تفيض

بقولنا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص فعدنا الى كهف النوم مستسلمين للقضاء نطلب الفرج بمجرد التمنى والدعاء » (١) وقد أحسن السيد كامل الغزى فى وصفه لأسلوب الكواكبى بقوله انه كان يختار للمعنى لفظا على قدر المعنى لا يضيق ولا يتسع لغيره وهذه هى البراعة فى اللغة وما تؤلفه مفرداتها من المركبات الاسنادية وكان لا يعبأ بزخرفة الالفاظ ولا يكثر من الاستعارة (٢) ونمضى مع الكواكبى فى عرضه لأسباب ما وصفه بالفتور العام بين المسلمين والذي ذكر فيه الاسباب المتنوعة المختلفة على لسان أعضاء جمعيته التى تخيل عقدها فى مكة أم القرى .

فيري ان من بين أسباب هذا الفتور الفقر الآخذ بالزمام لأن الفقر قائد كل شر ورائد كل نحس « فمنه جهلنا ومنه فساد أخلاقنا » .

ويبدع الكواكبى غاية الابداع حين يدعو الى ان الدين الاسلامى دين الاشتراكية بما قرره من حق الفقراء فى أموال الأغنياء فقلبت الحكومات الاسلامية الموضوع فصارت تجبى الاموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء وتحابى بها المسرفين والسفهاء .

وسنرى عند دراستنا لكتابه طبائع الاستبداد كيف كانت دعوة الكواكبى الاجتماعية تتمثل فيها كل مثل الاشتراكية ومبادئها فكان بذلك أول من نادى بأن يكون الاجر على قدر العمل والى تحديد الملكية على نحو ما سنعرض له فيما بعد .

(١) الكواكبى - أم القرى ص ٥١

(٢) كامل الغزى : مجلة الحديث سنة ١٩٢٩ العدد السادس ص ٤٠٤ وما بعدها : تاريخ ما أهمله التاريخ من سيرة عبد الرحمن الكواكبى بطل الحرية وفقيه الشرق .

ويرى الكواكبي ان الزكاة التي جاء بها الاسلام فرضا من فروضه وركنا من أركانه الأساسية انما قصد بها اذا ما عاش المسلمون مسلمين حقيقة (يؤدون تلك الفريضة) أمنوا الفقير وعاشوا عيشة الاشتراك العمومي المنتظم الذي يتمناه أغلب الدول الأخرى التي تدعى المدنية والتقدم . فاذا كانت تلك الأمم تنادي بما يسمى الاشتراكية والقصد منها التقارب والتساوى في الحقوق فان أداء الزكاة يكفل للمسلمين ذلك كما سبب إهمالها فقد الثمرات العظيمة من معرفة فضلها .

ويسوق الكواكبي على لسان العضو المسلم من بلاد الانجليز فضل الزكاة وحكمة التشريع في أمور كثيرة مثل نسيانهم بالكلية حكمة تشريع الجماعة وصلاة الجمعة والحج .

وفى الوقت الذي أخذت الأمم الأخرى عن الاسلام أمورا كثيرة منها تخصيصها يوما في الأسبوع للراحة من العمل ، يعقد الناس فيه اجتماعاتهم وندواتهم يتباحثون ويتناجون . وهذا نفس ما رمى إليه التشريع الاسلامي حين جعل صلاة الجمعة صلاة جماعة . ففي الوقت الذي أهمل المسلمون كثيرا من شئونهم أخذ الآخرون عنهم فضائل دينهم فتقدموا عليهم وسبقوهم في ميادين كثيرة بسبب ذلك .

ثم يعود الكواكبي ليحمل على العلماء المنافقين ويرى أن أفضل الجهاد في الله هو الخط من قدر العلماء المنافقين والجهال وتحويل احترام الناس للعلماء العاملين حتى اذا رأى الحكام ذلك انقادوا هم أيضا واضطروا لاحترام العلماء .

وللكواكبي اهتمام خاص بالعلماء وبوظيفتهم في الامة الاسلامية فهم أهل الحل والعقد الذين لا تنعقد شرعا الامامة الا ببيعتهم وهم رؤساء الأمة ووكلاء العامة ويستعرض تاريخ الامة الاسلامية فيرى

ان ضعفها أو قوتها مرهون بضعف أو قوة أهل الحل والعقد فيها
واشتراكهم فى تدبير شئون الامة • ويخلص الى أن ضعف الامة
الاسلامية فى الوقت الذى عاشه الكواكبي مرجعه ضعف العلماء
وتملقهم للأمراء والحاكمين ، وهم بفعلهم ذلك مكنوا الامراء من
الاستبداد •

وبعد أن استغرق بحث اعراض الداء النازل بالمسلمين وأسبابه
وجرائمه ثلاث جلسات ، بدأ الاعضاء فى اجتماعهم الرابع ينتقلون
الى بحث مسألة أخرى من المسائل التى أدرجوها فى جدول أعمالهم
وهو تعريف الدين الاسلامى أو ما هى الاسلامية ؟

وجاء الكواكبي بدراسة لهذه المسألة على لسان العضو النجدي
وكأنه يريد ان يقول ان الاسلام الصحيح هو اسلام أهل نجد ومن
ثم فان العضو النجدي أقدر الناس على أن يتناول ذلك ، فأهل
مكة أدرى بشعابها كما يقول المثل •

يدعو الكواكبي الى ضرورة اتباع القرآن والسنة دون تأويل
أو تحريف • والكواكبي فى هذا يريد أن يعود الدين الاسلامى الى
بساطته الاولى التى كان عليها فى صدر الاسلام وهو فى هذا شبيه
بابن تيميه الذى كان يدعو الى نفس ما دعا اليه الكواكبي فى هذه
الناحية ، ويتفق الكواكبي مع ابن تيميه بأنه لا سبيل الى عزة
الاسلام الا بالقضاء على مظاهر الشرك المختلفة رفاق من يعتقد ان
هناك غير الله قادر على قضاء حاجته ويرجو عنده الخير فهو مشرك
بالله •

ومن البحوث الممتعة التى جاء بها الكواكبي فى كتابه أم القرى
بحثه عن الشرك فهو يفسر كلمة الايمان ومعناها الطاعة والتسليم
بدون اعتراض ويشرح كلمة العبادة بالتذلل والخضوع ثم التوحيد
بمعنى العلم بأن الشئ واحد ، وان الواحد والآخر صفتان لله

معناها المنفرد الذى لا نظير له أو ليس معه غيره . وكانت مهمة
الرسول الاولى هى جعل الناس لا تعظم غير الله وان نبينا صلى الله
عليه وسلم لبث عشر سنين يقاسى الاهوال فى دعوته الناس الى
التوحيد فقط وسمى أمته الموحدين .

وبعد أن يمضى الكواكبى يشرح شرحا مستفيضا معنى اياك
نعبد واياك نستعين وأن معناها الاستعانة بالله مقرونة بعبادته .
فاذا جاء بعض المسلمين اليوم يعبدون الله ويستعينون بغيره من
الاولياء الصالحين ، وغيرهم فهم بعيدون عن عبادة الله وأصبح هناك
مسلمون يخترعون عبادات وقربات لم يأت بها الاسلام ومنهم
جماعة اتخذوا دين الله لهوا فجعلوا العبادة غناء ورقصا . ثم هو
يحمل على التصوف فيرى ان الدين الاسلامى كان نقيا حتى أواخر
القرن الرابع الهجرى ثم بدأ قوم يدخلون فى الدين ما لم يكن فيه
(كأن نبينا ترك لنا ديننا ناقصا فهم أكملوه » .

ويلقى الكواكبى التبعة فيما دخل على الدين من الخرافات
والزيف والبطلان والبدع - على العلماء وهو ينحى باللائمة على
المتشددى من العلماء مثلما يحمل فى شدة على المتهادين منهم فلا
تفريط ولا افراط . وفى الحديث هلك المتنطعون أى المتشددون فى
الدين .

وعند بدء الاجتماع الخامس للجمعية قرر رئيسها تفويض لجنة
لوضع مشروع قانون لجمعية دائمة واقترح ان ينضم لعضوية
هذه اللجنة من له خبرة من الأعضاء بقوانين الجمعيات العلمية ونظمها
وعين لوظيفة سكرتير هذه اللجنة السيد الفراتى وضمت العضو
الهندي والتركي والمصري والعضو المسلم من بلاد الانجليز .

ثم تمضى الجمعية فى مناقشاتها تاركة للجنة المتفرعة منها أن تحدد مواعيد اجتماعاتها الخاصة . ويمضى الكواكبى يقص علينا على لسان العضو النجدى (من أهل نجد) كيف أن أصول الدين الاسلامى بل بعض فروع الشريعة الاسلامية متفق عليها لأن لها فى القرآن والسنة أحكاما صريحة قطعية الثبوت . أما الخلافات فهى فى فروع تلك الأصول وفى بعض الأحكام التى ليس لها فى القرآن أو السنة نصوص صريحة .

ونجد الكواكبى يثنى الشناء كله على أهل الجزيرة العربية الذين ما زالوا على مذهب السلف فى الدين بعيدين عن التفتن فيه يتبعون أصول اجتهاد الامام زيد بن على زين العابدين (الزيدى) أو أصول الامام أحمد بن حنبل ويمدح العلماء عند أهل الجزيرة فالعالم عندهم من اتصف بصفات خمس : الماما باللغة العربية المضرية القرشية ، قارئاً لكتاب الله تعالى قراءة فهم متعمقا فى معانيه متضلعا فى السنة النبوية ، واسع الاطلاع وصاحب عقل سليم فطرى لم يفسد ذهنه المنطق والجدل والفلسفة اليونانية وما اليها وهم (العلماء) لا يقلدون الا بعد الوقوف على دليل من يقلدون يأخذون من القرآن احكامه ثم ما لم يجدوه فى كتاب الله أخذوه من صحيح سنة رسول الله . فاذا لم يجدوا فى المسألة حديثا أخذوا باجماع علماء الصحابة .

والكواكبى فيما يقول متفق تماما مع ما جاء به ابن تيميه الذى رأى ان الشريعة الاسلامية أصلها القرآن والسنة ورأى أن ترجع أحكام الشريعة اليهما وحدهما دون غيرهما فان لم يوجد فى الكتاب والسنة فى أقوال الصحابة والتابعين . وكان يرى الاقتصاد على طبقات ثلاث بعد النبى هى طبقة الصحابة وتابعيهم ثم تابعى التابعين فقط دون غيرهم .

واذا كان ابن تيمية قد قال بأنه لا ينبغي ان نقلد اماما في موضع سنة عرفناها وأورد قول الامام مالك انما أنا بشر أصيب وأخطيء ، كذلك قال الكواكبي (وهو يثنى على أهل الجزيرة العربية حيث يرفض العلماء ان يفتوا في مسألة مطلقا ما لم يذكروا معها دليلها من الكتاب أو السنة أو الاجماع) - ان الامام مالك رضى الله عنه كان يقول ما من أحد الا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه الا رسول الله .

وأورد الكواكبي عبارة قالها ابن تيمية للامام الشافعي هذا رأيي فان صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط . كما أورد عبارات لابن حنبل وأبى حنيفة يدعوان الناس فيها الى أن يكون أساسهم القرآن والحديث .

ويخلص الكواكبي من ذلك مثلما خلس ابن تيمية الى أن الشريعة الاسلامية أصلها القرآن وان نبي هذه الامة قد فسر القرآن وان الذين تلقوا ذلك التفسير هم الصحابة ثم نقلوها الى التابعين .

كان الكواكبي في بحثه ذلك يريد القول ان الدين الاسلامي ينبغي أن ينقى من كل ما علق به من شوائب ومن كل مادخله من بدع واضاليل من جانب أقوام أصبحوا أصحاب طرق دينية وصوفية أساءوا الى هذا الدين ولم يفيدوه في شيء .

والكواكبي حين يحمل على الطرق الصوفية لا يكره التنسك الذي كان شيمة لأكثر الصحابة والتابعين وانما هو يحمل على هؤلاء الذين اتخذوا من التصوف مهنته واستغلوا جهل العامة فأصبح لهم (لأصحاب الطرق الصوفية) مقاما كمقام النبوة بل الالهية بما ادعوه من قوة قدسية وتصرف في ملكوت الله . وأتوا بخزعבלات وتأويلات وخيالات وأوهام وألفوا الكتب الكثيرة المحشوة بالكاذيب والقضايا والتركيبات الغير مفهومة .

يرى الكواكبي ان الاسلامية كانت سمحاء خالصة من شوائب الزوائد والتشديد لأن الاسلامية التي هي أحكام القرآن وما ثبت من السنة وما اجتمعت عليه الأمة في الصدر الأول ليس فيها ما يآباه عقل أو يناقضه تحقيق علمي . ثم هو يقول لو فهمنا الدين الاسلامي على بساطته لم نصل الى اصلاح حالنا فحسب ، بل لجذبنا اليه كثير من غير المسلمين المتنورين الاحرار فجعلناهم يتبعون هذا الدين وحفظنا كثيرا من أبناء المسلمين من هجرهم لهذا الدين الذي أسأنا اليه لتشددنا تشديدات مبتدعة .

ثم هو يورد بحثا تاريخيا على لسان العضو التبريزي (من تبريز) يوضح ان الاسلام تعرض لفتنتين كبيرتين : الأولى التنازع على الخلافة والملك فتفرق المسلمون في الدين لتفرقهم في السياسة وهو بهذا يشير الى الفتنة التي بدأت تواجه المسلمين بعد مقتل عثمان والصراع بين أنصار علي ومعاوية .

أما الفتنة الثانية فهي ما شهدته المسلمون على عهد الخلافة العباسية حين اتسعت شقة الخلاف في المذاهب بين المسلمين حتى استحال الرجوع الى الفروع ولا الى الاصول فاطمأنت الامة الى التقليد وصار أبناءها يحسنون الظن في كل ما يجدونه مدونا بين دفتي الكتاب لأنهم رأوا التسليم أهون من التبصر وصار أهل كل اقليم يتعصب لمؤلفات شيوخهم ويتخذون الخلافات مدارا لتطبيق الاحكام على الهوى . وأصبح اختلاف الامة سببا للتفرقة الدينية والتباغض بين المسلمين .

وما أسوأ التعصب وما أضره على الاسلام والمسلمين ، يرى الكواكبي ان التعصب هو آفة الآفات لهذه الامة الاسلامية فقد خالف المسلمون قول الله تعالى أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . ويدعو الكواكبي علماء الهداية والمخلصين لدينهم أن يقاوموا فكرة التعصب

لمذهب دون الآخر فيكون سعيهم منتجا للتأليف وجمع الكلمة
في الأمة .

ويبدأ الأعضاء منذ اجتماعهم السابع في الاستماع الى تلخيص
للأسباب التي أبدوها لفتور الأمة الاسلامية يقوم بالقائها السيد
الفراتى (كاتب الجمعية) .

ويرجع الكواكبي الاسباب الى أمور دينية وأخرى خلقية وثالثة
سياسية . وكل سبب من هذه الاسباب منها أصول وفروع ترمز
للأصول بحرف أ وللفروع بحرف الفاء من الأصول في الأسباب
الدينية .

- ١ - تأثير عقيدة الجبر على أفكار الأمة .
- ٢ - تأثير فتن الجدل في العقائد الدينية .
- ٣ - الاسترسال للتخالف والتفرق في الدين .
- ٤ - الدهول عن سماحة الدين وسهولة التدين به .
- ٥ - تشديد الفقهاء المتأخرين في الدين خلافا للسلف .
- ٦ - ادخال العلماء المدلسين والمغاييرية على العامة كثيرا من
الأوهام .
- ٧ - ادخال العلماء المدلسين على الدين مقتبسات كتابية
وخرافات وبدعا مضرة .
- ٨ - ايهام الدجالين والمداجين ان في الدين أمورا سرية وأن
العلم حجاب .
- ٩ - اعتقاد منافاة العلوم الحكيمة والعقلية للدين .
- ١٠ - الغفلة عن حكمة الجماعة والجمعة وجمعية الحج .

ومن الفروع في هذا الباب

- ١١ - تهوين غلاة الصوفية الدين وجعلهم اياه لهوا ولعبا .

١٢ - افساد الدين بتفنن المداجين بمزايدات ومتروكات وتأويلات .

١٣ - التعصب للمذاهب والآراء المتأخرين وهجر النصوص ومسلك السلف .

١٤ - العناد على نبد الحرية الدينية جهلا بميزتها .

١٥ - تطرق الشرك الخفى أو الصريح الى عقائد العامة .
وأما الأسباب السياسية فتتضمن مسائل أساسية (أصولا) وأخرى فروعاً فمن الأصول :

١ - السياسة المطلقة من السيطرة والمسئولية .

٢ - حصر الاهتمام السياسى بالجباية والجنديّة فقط

٣ - اعتبار العلم عطية يحسن بها الأمراء على الأخصاء وتفويض خدم الدين للجهلاء .

٤ - قلب موضوع أخذ الاموال من الاغنياء واعطائها للفقراء (يقصد الكواكبي بذلك عدم الاخذ بتشريع الزكاة فانقلبت الآية فأصبحت الاموال تؤخذ من الفقراء لتعطى للأغنياء) .

٥ - ابعاد الأمراء والنبلاء والأحرار وتقريبهم المملّكين والأشرار .

ومن فروع هذا الباب

١ - فقدان قوة الرأى العام بالحجر والتفريق .

٢ - مراغمة الامراء السراة والهداة والتنكيل بهم .

٣ - فقدان العدل والتساوى فى الحقوق بين طبقات الأمة .

٤ - ميل الامراء طبعا للعلماء المدلسين وجهلة المتصوفين

ثم تأتى بعد ذلك الأسباب الخلفية :

من الأصول :

- ١ - الاستغراق في الجهل والارتياح اليه
- ٢ - انحلال الرابطة الدينية والاحتسابية
- ٣ - التباعد في المكاشفات والمفاوضات في الشئون العامة .
- ٤ - فقدان التناصح وترك البغض في الله .

ومن الفروع :

- ١ - غلبة التخلق بالتملق تزلفا وصغارا .
- ٢ - اهمال طلب الحقوق العامة جنبا وخوفا من التخاذل
- ٣ - فساد التعليم والوعظ والخطابة والارشاد .

ولم نشأ ان نأتى بحصر شامل بكل ما ذكره الكواكبي من أسباب سسواء ما جاء منها في باب الأصول أو الفروع وانما اكتفينا بذكر بعضها تمشيا مع ما مضينا فيه من الحديث في هذا الفصل وهو عرض شامل وعام لكتاب أم القرى ونحيل القارىء الكريم للرجوع الى هذا الكتاب كي يلم بكل الاسباب التي جاء بها الكواكبي ولخص فيها أسباب الانحطاط النازل بالأمّة الاسلاميّة .
وبعد أن عرض الكواكبي لهذه الأسباب تناول بالذكر والتخصيص دور العثمانيين في تدهور الأمّة الاسلاميّة .

انتقد الكواكبي في شدة سياسة الدولة العثمانية وادارتها لاقاليمها ، فهو يرى أن الخلل جاء للدولة في السنتين سنة الاخيرة (السابقة على وضعه لكتابه) وذلك حين اندفعت الدولة لتنظيم أمورها فهو يرى أن الدولة عطلت أصولها القديمة ولم تحسن التقليد . ونراه في موضع آخر من كتابه يحمل على التنظيمات الخيرية (وهى المراسيم السلطانية التي صدرت على عهد السلطان عبد المجيد سنة ١٨٥٦ على زعم أنها حركة اصلاحية أقدمت عليها

الدولة (١) . فهو يرى ان الدولة العثمانية بعد صدور هذه التنظيمات اطلقت يد الولاة فى الاقاليم وتعمدت ان تختار لحكم هذه الاقاليم الولاة الذين لا يحبهم المحكومون حتى لا يتفق هؤلاء الولاة مع من ولوا عليهم ضد الدولة .

وللكواكبى رأيه المعروف فى العثمانيين فهو يحمل عليهم لانهم هضموا حقوق العرب فى المناصب برغم أنهم يكونون ثلثى الدولة ويرى ان العثمانيين فشلوا سياسيا واداريا بسبب الاطر - الكثيرة لهم وللشعوب التى يحكمونها من اصرارهم على اتباع قوانين موحدة فى الادارة والعقوبات بالرغم من تباين الاجناس فى الدولة واختلاف طبائعها وعاداتها . وهم يتبعون السياسة المركزية مع ما فيها من الاضرار ويضعون من القوانين ما يتعارض مع أصول الشرع الاسلامى . ومن أشد الأمور التى جعلت الكواكبى ينتقد السياسة العثمانية اتباعها لسياسة الكبت والاستبداد فهو يرى ان الضغط يولد الانفجار وينتج عنه الحقد على الادارة (١) وهو يرى أن العثمانيين يديرون الدولة ادارة مداراة واسكات للمطلعين على معاييبها حذرا من أن ينفثوا ما فى الصدور فتعلم العامة حقائق الامور « والعامة من اذا علموا قالوا ، واذا قالوا فعلوا وهناك الطامة الكبرى » .

وبعد أن يعرض السيد الفراتى هذه النواحي فى سياسة الدولة العثمانية على أعضاء الجمعية يضيف اليها أسبابا أخرى شتى يرى ان لها دورها فى تدهور أمور المسلمين على عهد العثمانيين منها عدم تطابق الأخلاق بين الرعية والرعاة وعدم الاعتناء بتعليم النساء .

(١) كان انتقاد الكواكبى لسياسة الاستبداد التى اتبعتها الدولة العثمانية وأفعاله دافعا له لوضع كتاب طبائع الاستبداد على نحو ما سنتناول وذلك فيما بعد .

وكان الحضر على تعليم المرأة من أهم الأمور التي عالجها الكواكبي في الناحية الاجتماعية وجاءت دعوته سابقة على كل من جاءوا بعده يدعون لتعليم المرأة الشرقية في العصر الحديث : « ان لانحلال أخلاقنا سببا مهما آخر يتعلق بالنساء وهو تركهن جاهلات على خلاف ما كان عليه أسلافنا حيث كان يوجد في نساءنا كأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها التي أخذنا عنها نصف علوم ديننا وكمثات من الصحابييات والتابعيات راويات الحديث . . ففي ذلك حجة دافعة ترغم أنف غيرة الذين يزعمون أن جهل النساء أحفظ لعفتن فضلا عن أنه لا يقوم لهن برهان على ما يتوهمون حتى يصح الحكم ان العلم يدعو للفجور وان الجهل يدعو للعفة . نعم ربما كانت العالمة أقدر على الفجور من الجاهلة ولكن الجاهلة أجسر عليه من العالمة . ثم ضرر جهل النساء وسوء تأثيره في أخلاق البنين والبنات أمر واضح غنى عن البيان » .

ويرى الكواكبي ان أحد الاسباب الرئيسية في فشل العثمانيين في مجال السياسة هو عدم تجنسهم بجنسية رعاياهم ولما كانت غالبية هذه الرعية عربا فانه كان الواجب على الأتراك أن يستعربوا مثلما فعل آل محمد على وغيرهم . ويورد بعضا من الفاظ السباب التي يطلقها الأتراك على العرب الذين لا يقابلون ذلك سوى بجملة جمعت فوعت « ثلاث خلقن للجور والفساد : القمل والترك والجراد » .

ونراه حريصا قبل أن ينهى أعمال جمعيته على سرد شيئا من سيرة العثمانيين تجاه الدين الاسلامي والامم الاسلامية ويورد ذلك في شكل رسالة جاءت للفراشي (كاتب الجمعية) من عضوها الهندي يسرد هذا العضو على الفراتي مناقشة دارت بينه وبين صديق له من أحد أمراء المسلمين . ويروي هذا الصديق على العضو

الهندي ما فعله العثمانيون في الاسلام والمسلمين وكيف انهم
فضلوا الملك على الدين .

« وأما سلاطين » آل عثمان الفخام فاني أذكر لك نموذجاً
من أعمال لهم أتوها رعاية للملك . وان كانت مصادمة للدين فأقول
هذا السلطان محمد الفاتح وهو أفضل آل عثمان قد قدم الملك على
الدين فاتفق سرا مع (فرديناند) ملك (الاراغون) الاسبانيولى
ثم مع زوجته (ايزابلا) على تمكينهما من ازالة ملك بنى الاحمر آخر
الدولة العربية في الاندلس . وهذا السلطان سليم غدر بال
العباس واستقصاهم حتى انه قتل الأمهات لأجل الاجنة وبينهما كان
هو يقتل العرب في الشرق كان الاسبانيون يحركون بقيتهم في
الاندلس . وقد سعوا (العثمانيون) في انقراض خمسة عشر
دولة وحكومة اسلامية منها انهم أغروا واعانوا الروس على التتار
المسلمين وهولانده على الجاوة والهولنديين وتعاقبوا على تدويخ اليمن
فأهلكوا الى الآن عشرات الملايين من المسلمين . » .

وقبل أن تنهى جمعية أم القرى اجتماعها أقرت قانوناً بانشاء
جمعية تعرف بجمعية تعليم الموحدين من مائة عضو منهم عشرة
عاملون وعشرة مستشارون وثمانون فخريون واشترط في الأعضاء
العاملين والمستشارين عدة صفات أهمها المقدرة على التكلم والكتابة
بالعربية . ومهمة الجمعية الا تتدخل في السياسة وانما مهمتها
تعليم القراءة والكتابة والترغيب في العلوم واصلاح اصول تعليم
اللغة العربية .

وكان الكواكبي يرى ان أحد أسباب اعراض الناس عن تعلم
اللغة العربية هو سوء الكتب الموضوعة لهذا الغرض والمحشوة
بأشياء صعبة على المبتدئ في تعليم هذه اللغة . وللجمعية مهمتها
في المجال الديني وهو نشر بحوث شهرية في الأمور الدينية
تستهدف تعليم المسلمين أصول دينهم الصحيح وبين السلف الصالح

وتهتم الجمعية بأعداد تلامذتها كى يكونوا مرشدين ومبعوثين فى البلاد
الاسلامية المختلفة . (١)

وبعد انتهاء جمعية أم القرى من اقرارها لانشاء جمعية تعليم
الموحدين اتخذت عدة قرارات سرية ولم تدع من قراراتها سوى قرار
واحد هو فى نظرنا من أهم الامور التى نادى بها الكواكبي .

ينادى الكواكبي على لسان جمعيته بأن الجزيرة العربية وأهلها
هما مناط الامل فى النهضة الدينية . نفس الجزيرة العربية وهى
مشرق النور الاسلامى الكعبة المعظمة التى يحج اليها المسلمون من
كل فج عميق وان دين أهلها هو الدين الحنفى السلفى البعيد
عن التشويش .

وبعد أن يشن الكواكبي على عرب الجزيرة حرصهم على الدين
والحرية والاستقلال يشن الشنء كله على العرب فلفتهم أغنى لغات
المسلمين فى المعارف مصونة بالقرآن الكريم والعرب أقدم الأمم
اتباعا لأصول تساوى الحقوق وأعرفهم فى أصول الشورى وأنسب
الأقوام لأن يكونوا مرجعا فى الدين . فلهذه الأسباب قررت جمعية
أم القرى أن تعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة
الدينية بل الكلمة الشرقية .

وحين يخلص الكواكبي من جمعيته التى تخيل عقدها من ممثلين
للأمة الاسلامية على أن العرب هم خير من ينبغى أن يثول اليهم أمر
هذا الدين والحفاظ عليه يرى ان يكون الخليفة الاسلامى عربيا
قرشيا كسابق عهده فى صدر الاسلام فلما خرج الامر من العرب
صار الأمر الى غير أهله واعوج أمر المسلمين .

وتلك كانت أعظم ما دعا اليه الكواكبي . فهو يدعو العرب
الى اليقظة وان ينهضوا ليباشروا أمور الدين الاسلامى ، وكأنه

(١) أخذ رشيد رضا بنفس الفكرة وأسس مدرسة للدعوة والارشاد سنة

١٩١٢ فى القاهرة .

يريد أن يقول لهم ان هذه هي رغبة المسلمين في كل أنحاء العالم
فكونوا عند حسن ظنهم ولا تتركوا أمور الدين لغيركم فالأترك قد
ضيعوا الدين وأهله « أليس الترك قد تركوا الأمة أربعة قرون ولا
خليفة وتركوا الدين تعبت به الأهواء ولا مرجع وتركوا المسلمين
صما بكما عميا ولا مرشد » .

وقال الكواكبي أنه غير متعصب للعرب انما يرى ما يراه كل
حر مدقق يتفحص الامر ويصل الى العلاج ، ولا علاج الا بأن يناط
بالعرب مهمة حماية الدين الاسلامي وزعامة أمر المسلمين .

وسيظل التاريخ يذكر ان دور الكواكبي كان عظيما في
نفوس ناشئة العرب قبل ثورة ١٩٠٨ وما بعدها اذ كان شباب
العرب يتهافتون على كتابيه أم القرى وطبائع الاستبداد ويقبلون
عليهما اقبال الظمان على الماء القراح ويتخذونهما انجيلا لنهضة
العرب الاصلاحية .

مركز تحقيق وتطوير علوم الدين

الفصل السادس

الكوابي والاسْتِبراد

مركز بحوث القرآن الكريم

من المعروف أنه ما كاد الكواكبي يترك حلب مسقط رأسه ليستقر به المقام في مصر حتى بدأت الصحف فيها وفي مقدمتها المؤيد تنشر مقالاته التي حمل فيها على الاستبداد ودعائه . لقد آلى الكواكبي أن يكون حربا عوانا على المستبدين من حكام المسلمين وفي مقدمتهم بطبيعة الحال خليفة المسلمين أمثال السلطان عبد الحميد الثاني . فلم يعرف التاريخ الحديث عهدا شهدت فيه البلاد العربية خنقا للحريات ولا استبدادا أسوء مما كان في عهده .

هاجم الكواكبي المستبدين وطريقتهم وفلسفتهم في الحكم وإذا كان الكواكبي قد اطلع صديقه وصفيه كامل الغزى على مشروع كتابه الذي أسماه أم القرى وأنه (الغزى) كان يعرف أنه جدير بالنشر ، فإن الكواكبي لم يطلعه على كتابه طبائع الاستبداد . يقول الغزى وبعد أن أمضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوما لم يشعر الا وصدى مقالاته في صحف مصر ، وأخذت جريدة المؤيد تنشر له تفرقة « كتاب طبائع الاستبداد » الذي لم يطلعنا عليه مطلقا بخلاف كتاب جمعية أم القرى فقد اطلعنا عليه مرارا . ثم انه طبع الكتابين المذكورين وقام لهما في (المابين) (١) السلطاني ضجة عظيمة ،

(١) كان السلطان عبد الحميد الثاني بعد أن سرح مجلس المبعوثين سنة ١٨٧٨ وعطل العمل بالدستور قد جعل ديوانه في قصر يلدز الفخم وحشد فيه مستشاريه ومرافقيه وهذا الديوان كان يقوم صلة الوصل بينه وبين الباب العالي =

وصدرت ارادة السلطان بمنع دخولهما الى الممالك العثمانية ، بيد
أنهما رغما عن ذلك كله وصلا الى حلب على صورة خفية وقرأناهما فى
سمرنا المرة بعد المرة .

ويذكر الأستاذ ابراهيم سليم النجار فيما كتبه عن الكواكبى
أنه (الكواكبى) تعرف بالأستاذ على يوسف فى مصر والسيد رشيد
رضا صاحب مجلة المنار فتمكنت بينهما روابط الصداقة والمودة
« فكننا نجتمع كل مساء فى حلقتنا المعروفة فى القاهرة » (١) .

كان هذا اللقاء يتم فى مقهى سبلندوبار بالقاهرة حيث كان
يضم هذا الملتقى عددا من الأخوان السوريين الذين جاءوا الى مصر
قبل الكواكبى وبعده وكان فرارهم الى مصر من أجل العمل على
تخليص بلادهم من الحكم العثمانى المستبد .

لقد استهدف الكواكبى من كتابه ، طبائع الاستبداد ومصارع
الاستعباد ، أن تكون صيحة تفعل فعلها فى ايقاظ النفوس وبث
الهمم وكان يوقن ان اليقظة العربية لا تتم بين يوم وليلة وانما
تحتاج الى وقت من الزمن فما على المصلحين الا أن يبذلوا ليجنى من
يأتى بعدهم ثمار غرسهم . وهذا ما قصده الكواكبى من تلك الكلمة
التي وصف بها كتابه طبائع الاستبداد « وهى كلمات حق وصيحة
فى واد ، ان ذهب اليوم مع الريح ، لقد تذهب غدا بالأوتاد » .

كان الكواكبى يستهدف أن تدفع كلماته الزعماء والمصلحين
للأخذ بيد الأمة للنهوض بها يعلمونها بحالتها السيئة وانه بالإمكان
تبديلها بخير منها ، فاذا هى علمت يبتدأ فيها الشعور بالآلام
الاستبداد ، ثم يترقى هذا الشعور بطبعه من الآحاد الى العشرات .

= (مجلس الوزراء) فسمى بالمابين اختصارا للفظه العربية ما بين السلطان والباب
العالى .

(١) مجلة الحديث سنة ١٩٤٠ العدد الخامس .

حتى يشمل أكثر الأمة وينتهى بالتحسس ويبلغ بلسان حالها الى
منزلة قول الحكيم المعري .

إذا لم تقم بالعدل فينا حكومة

فنحن على تغييرها قدراء

أى أن الكواكبي كان يؤمن أن كلماته وأن لم تفعل فعلها فى
زمنه فان الأيام كفيلة لها بأن تفعل فعلها وان تحقق ما رماه من
ورائها ، « وهكذا ينقذف فكر الأمة فى واد ظاهر الحكمة يسير
كالسيل لا يرجع حتى يبلغ منتهاه » .

وكان ما ارتآه الكواكبي وحدثت تطورات كثيرة بعد موته لكنها
بفضله . فى سنة ١٩٠٨ أجبر السلطان عبد الحميد على إعادة العمل
بالدستور (١٩٠٨) فلما حاول أن ينكث بيمينه الذى أقسمه على
عدم ابطال الدستور ، انتهى الأمر بخلعه عن العرش (١٩٠٩) .
وكان للعرب فى كل من الحركتين دور كبير وفضل بارز . فلما
انقلب الاتحاديون على العرب ومضوا يتبعون سياسة التتريك
تحرك الثوار العرب تارة بالمؤتمرات وأخرى بالجمعيات . ثم كانت
المشائق التى علقها جمال باشا (السفاح) ابان الحرب العالمية الاولى
لزعماء الحركة العربية ايدانا بانفجار الموقف . فلقد ظلت كلمات
عبد الغنى العريسي وهو يصعد الى المشنقة تتردد فى آذان العرب .
« بلغوا جمال باشا ان الملتقى قريب وان أبناء الرجال الذين يقتلون
اليوم سيقطعون فى المستقبل بسيوفهم أعناق أبنائك الأتراك . ان
الدول لا تبنى على غير الجماجم . وان جماجمنا ستكون أساسا
لاستقلال بلادنا » .

وزادت الهوة عمقا وبعدا بين العرب والترك . وأخذ أعضاء
الجمعيات العربية ممن لم يكتشف أمرهم يتصلون بالشريف حسين

شريف مكة يتداولون معه فى الأمر ويعدون العدة لثورة مقبلة تحدد الموقف . ثم كانت الثورة العربية ابان الحرب العالمية الأولى والتي أثرت على مجرى الأحداث تأثيرا كبيرا وأذنت بانفصام عرى وحدة سياسية جمعت بين العرب والأتراك فى امبراطورية واحدة أكثر من ستة قرون .

كانت صيحة الكواكبي اذا حين تصدى لاستبداد الأتراك بداية
صرخة كبرى فى وجه الظلم والطغيان الذى شهدته البلاد العربية على
عهد العثمانيين .

يبدأ الكواكبي كتابه طبائع الاستبداد بعد حمد الله والصلاة على نبيه أنه حين جاء الى مصر وجد أفكار سراًة القوم فيها كما في سائر الشرق تبحث في أسباب انحطاط المسلمين وما هو الدواء .
واذا كانت الأفكار قد ضلت في معرفة السبب وبالتالي في ذكر العلاج فان الكواكبي يبادر للقول ان **الاستبداد انسيامي هو أصل الداء** ويؤكد انه لم يذكر ذلك الا بعد بحث جاوز الثلاثين عاما ودراسة وتمحيص كادت تكلفه حياته . وأنه حين جاء الى مصر نشر الأبحاث في هذا المجال في أشهر جرائدها ثم جمعها في كتاب فلما عاد من رحلته الى البلاد العربية وجد الكتاب قد نفذ في برهة قليلة فلما انتهت أسفاره (١٩٠٢) وجاء الى مصر أعاد النظر في كتابه فزاد فيه واختصر . كما يؤكد أنه لم يقصد حكومة معينة وانما قصد التنبيه الى مورد الداء الدفين في أمتة العربية عسى أن يعرف الذين قضاوا نحبتهم أنهم هم المتسببون لما حل بهم ، فلا يعتبرون على الأغيار ولا على الأقدار وانما يعتبرون على الجهل وفقد الهمم والتوكل وعسى الذين فيهم بقية رفق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات .

ويبدأ الكواكبي مقدمة كتابه بذكر أهمية بحثه هذا فليس للعرب في ماضيهم أبحاث مستقلة في السياسة على عكس الأمم

الأوربية . واذا استثنينا بعض ما كتبه ابن خلدون أو رفاة الطهطاوى وخير الدين التونسي فانه يمكن القول ان جهود العرب فقيرة فى هذه الناحية . ويدعو الكواكبي الى البحث فى موضوع الاستبداد ما هو وما أسبابه ثم ما اعراضه وما هو علاجه . وتلك هى العناصر الرئيسة فى كتابه .

يعرف الكواكبي الاستبداد لغويا بأنه غرور المرء برأيه والأتفة عن قبول النصيحة . ثم هو فى اصطلاح السياسيين تصرف فرد أو جمع فى حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة . ثم هو يقصر وصفه للاستبداد على الحكومة المطلقة العنان فعلا أو حكما التى تتصرف فى شئون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب . وأشد مراتب الاستبداد عند الكواكبي هى حكومة الفرد المطلق الوارث للعرش القائد للجيش الحائز على سلطة دينية ويرى أن دعائم الحكم المستبد جهل الأمة وجند الحاكم وجيشه ثم يورد بعض أقوال الحكماء فى وصف الاستبداد ومن ذلك قولهم .

المستبد يتحكم فى شئون الناس بأرادته لا بأرادتهم ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعى لمطالبته .

المستبد عدو الحق وعدو الحرية وقاتلها والحق أبو البشرية والحرية أهم والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئا والعلماء هم أخونهم الراشدون . .

المستبد يتجاوز الحد ما لم ير حاجزا من حديد فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفا لما أقدم على الظلم كما يقال : الاستعداد للحرب يمنع الحرب .

المستبد انسان مستعد بالطبع للشر وبالإلجاء للخير فعلى الرعية أن تعرف ماهو الخير وماهو الشر فتلجىء حاكمها للخير رغم طبعه . . .

المستبد يود أن تكون رعيته كالغنم درا وطاعة وكالكلاب تذلا وتحلقا وعلى الرعية أن تكون كالخيل ان خدمت خدمت وان ضربت شرسست وعليها ان تكون كالصقور لاتلاعب ولا يستأثر عليها بالصيد كله . . . نعم على الرعية أن تعرف مقامها هل خلقت خادمة لحاكمها تطيعه ان عدل أو جار وخلق هو ليحكمها كيف شاء بعدل أو اعتساف أم هي جاءت به لخدمها لا ليستخدمها .

وبعد أن يذكر الكواكبي أقبح أنواع الاستبداد فى نظره وهى استبداد الجهل على العلم واستبداد النفس على العقل ، يذكر فضل الهجرة فرارا من الاستبداد . وكأنه يريد أن يقول لبنى قومه ان ضاقت عليكم أرضكم باستبداد السلطان عبد الحمد وتجبره فان أرض الله واسعة (ولاشك فى ان اعانة الظالم تبدأ من مجرد الإقامة فى أرضه » .

(ما أليق بالأسير فى أرض أن يتحول عنها الى حيث يملك حريته فان الكلب الطليق خير حياة من الأسد المربوط » .

ويتحدث الكواكبي فى الفصل الثانى من كتابه عن « الاستبداد والدين » فيفضح تستر المستبد تحت راية الدين وزعمه الغيرة عليه . ويرى ان عدم فهمنا الدين فهما صحيحا أمر يجعلنا نعين المستبد على استبداده . ونمكنه من أن يتخذ لنفسه بطانة من خدمة الدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله . ويخلص الى ان بين الاستبداد السياسى والدينى مقارنة وتلازم متى وجد أحدها فى أمة جر اليها الآخر أو متى زال زال رفيقه . ولذى يرى كل المدققين السياسيين أن السياسة والدين يمشيان متكاتفين ويعتبرون ان اصلاح الدين هو أسهل وأقرب طريق للإصلاح السياسى . وجاء

الاسلام بعد اليهودية والنصرانية هادما للشرك واضعا لأسس الحرية
 السياسية وكان الحكم على عهد الخلفاء الراشدين الذين فهموا
 معنى ومعزى القرآن الكريم حكما قائما على المساواة والمشورة .
 ساوى الخلفاء الراشدون بين انفسهم وبين فقراء الأمة فى نعيم
 الحياة وشظفها . كما اتسم حكمهم بالمشورة التى دعا اليها كتاب
 الله الحكيم . فالقرآن ملىء بالآيات التى تमित الاستبداد فى الرأى
 « يا أيها الملأ افتونى فى أمرى ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون »
 « وقال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من
 أرضكم فماذا تأمرون ؟ قالوا ارجه واخاه وارسل فى المدائن حاشرين
 يأتوك بكل ساحر عليم : » وشاورهم فى الأمر » ويقول الكواكبي :
 ولولا حلم الله لخسف الأرض بالعرب حيث ارسل لهم
 رسولا من انفسهم اسس لهم أفضل حكومة أسست فى الناس
 جعل قاعدتها قوله صلى الله عليه وسلم كلکم راع وكلکم مسئول
 عن رعية أى کل منکم سلطان عام ومسئول عن الأمة فجاء من
 المنافقين من حرف المعنى عن ظاهره وعموميته الى أن المسلم راع على
 عائلته ومسئول عنها فقط وكان المسلمین لم يسمعوا قول
 النبی علیه السلام : الناس سواسية كاسنان المشط لافضل لعربى
 على عجمى الا بالتقوى . ومن هذه الأقوال السابقة يرى الكواكبي
 ان الدين الاسلامى هو دين العدل والمساواة والقسط والاخاء جعل
 اصول الحكم الشورى والاريسستوقراطية أى شورى أهل الحل
 والعقد وجعل أصول ادارة الأمة التشريع الديموقراطى أى
 الاشتراكى .

ثم جاء من المسلمين من أخذوا من ليس فى دينهم فاقتبسوا
 التعظيم وطاعة الكبراء وحاكوا مظاهر القديس وقلدوا رجال الكهنوت
 فى مراتبهم وتميزهم فى البستهم وشعورهم . وبذلك فتحوا الباب
 للاستبداد وهيئوا الطريق للاستعباد .

ثم ينتقل الكواكبي الى قسم أو فصل آخر من كتابه بعنوان :
الاستبصار والعلم :

يحسن الكواكبي ويجيد الاجادة كلها حين يصف المستبد وسلوكه مع أمته التي هم قيم عليها : ما أشبه المستبد في نسبته الى رعيته بالوصى الخائن القوي يتصرف في أموال الأيتام وأنفسهم كما يهوى ما داموا ضعافا قاصرين ، فكما أنه ليس من صالح الوصى أن يبلغ الأيتام رشدهم ، كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم •

ثم يعرف العلم بأنه « قبسة من نور الله وقد خلق الله النور كشافا مبصرا ولادا للحرارة والقوة ، وجعل العلم مثله وضاحا للخير فضاحا للشر يولد في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة • العلم نور والظلم ظلام ومن طبيعة النور تبديد الظلام » •

المستبد اذا في رأى الكواكبي للعلم بالمرصاد يحاربه ويتصدى له ، واهم ما يخشاه المستبد علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع والتاريخ والسياسة ونحو ذلك من العلوم التي تعرف الانسان حقوقه • والمستبد وهو يخشى هذه العلوم يخاف من اصحابها العلماء العاملين الراشدين المرشدين لا من العلماء المنافقين •

وكأني بالكواكبي يريد ان يقول للعلماء على عهد السلطان عبد الحميد : لقد أندس في صفوفكم الكثير من المنافقين الذين تملقوا السلطان فأصبح لا يخشاهم ولا يخاف بأسهم ، هم يتملقونه بما يخلعونه عليه من ألقاب وهو يقابل ذلك بانعاماته عليهم (١) •

(١) سبق أن أشار لذلك الكواكبي في كتابه أم القرى •

والمستبد لا ترتاح نفسه لأن يرى وجه عالم عاقل وانما يختار الغبي المتصاغر المتملق .

وما أصدق الكواكبي حين يقول ان بين الاستبداد والعلم حربا دائمة وطرادا مستمرا ، يسعى العلماء فى تنوير العقول ويجتهد المستبد فى اطفاء نورها وكلاهما يتجاذبان العوام الى طرفهما ، فالعوام هو قوت المستبد وقوته اذا أفلتوا منه بالعلم خسر كل شئ ذلك لأنهم حين يتعلمون يفهمون حقيقة الحرية والعزة والشرف فلا سبيل الى العبودية والاستبداد .

ويصف خوف المستبد من رعيته فيرى ان خوف المستبد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم بأسه ، لأن خوفه ينشأ عن علمه بما يستحقه منهم وخوفهم ناشئ عن جهل ، وكلما زاد المستبد ظلما واعتسافا زاد من خوفه من رعيته وحتى من حاشيته ، فالحاشية مطلعة على ظواهر المستبد وخفاياه ولذا فهى أكثر الناس تعرضا لبطشه .

وهناك فرق من وجهة نظر الكواكبي بين المستبد الغربى والشرقى ، فالأول يخاف العلم لأنه يهدى الشعب الى حقيقته وحرية فى حين ان المستبد الشرقى يخاف حتى من أوهام العلم ذاته ، ويخلص الى القول ان العلم لا يناسب حتى صغار المستبدين والحاصل انه ما انتشر نور العلم فى أمة قط الا وتكسرت فيها قيود الأسر وساء مصير المستبدين من رؤساء سياسة أو رؤساء دين .

ويمضى الكواكبي فى فصل جديد بعنوان **الاستبداد والمجد** يقدم لنا بحثا ممتعا كيف ان الاستبداد يغالب المجد فيفسده ويقيم مقامه التمجيد .

واذا كان المجد أمرا طبيعيا تتوق اليه النفوس فان التمجيد هو التقرب من المستبد فيصير الانسان مستبدا صغيرا فى كنف المستبد الأعظم والمتمجدون اعداء للعدل أعوان للظلم يمنحهم المستبد

الرتب والنياشين ليكونوا اعوانه وعيونه ، يقصد المستبد من
ايجادهم والاكتثار منهم التمكن بواسطتهم ان يغمر بالامة على اضرار
نفسها تحت اسم منفعتها . والخلاصة ان المستبد يتخذ المتمجدين
سماسرة لتغريير الامة باسم خدمة الدين أو حب الوطن أو توسيع
مملكة .

ويفضل الكواكبي الحياة الحرة فاذا ما استحالت كان
الاستشهاد والموت أفضل منها ويخالف ابن خلدون في رأيه القائل
بان من الخطأ اقدام البشر على الخطر اذا هدد مجدهم (١) . ومجد
أسماء بنت أبي بكر لأنها جعلت ابنها يقدم على الموت غير هيباب
فقالت له وهي تودعه : أن كنت على الحق فاذهب وقاتل الحجاج
حتى تموت .

ولما كان الناس على دين ملوكهم فان الحاكم المستبد يجعل
حكومته كلها مستبدة في كل فروعها من أكبر موظف فيها الى
أصغره « لأن الأسافل لا يهتمهم طبعاً الكرامة وحسن السمعة وانما
غاية مسعاهم ان يبرهنوا لمخدومهم بأنهم على شاكلته وانصار
لدولته » ، وهذه الفئة المستبدة من المستخدمين يكثر عددها ويقل
حسب شدة الاستبداد وخفته ، فكلما كان المستبد حريصاً على
العسف احتاج لزيادة جيش المتمجدين العاملين له المحافظين عليه .
فوزير المستبد هو وزير المستبد لا وزير الامة كما في الحكومات
الديموقراطية ، كذلك القائد يحمل سيف المستبد ليفهمه في الرقاب
بامر المستبد لا بامر الامة ، بل هو يستفيد من ان تكون الامة
صاحبة أمر لما يعلم من نفسه ان الامة لا تقلد القيادة لمثله .

ويحمل الكواكبي على هؤلاء الاعوان الذين يزينون الظلم
للمستبد ثم يبررونه للناس وفي مقدمتهم أولئك المتعاضمين باسم

(١) احمد امين - زعماء الاصلاح في العصر الحديث ص ٢٥٩

الدين يقولون للعامة : يا بؤساء هذا قضاء من السماء لامرد له
فالواجب تلقيه بالصبر والرضا . وفي مقابل هذه الروح
الاستسلامية التي يبثها هؤلاء المتقربون من السلطان ، تنهال عليهم
العطايا الكبيرة والرواتب الباهظة اضعاف ما تسمح به الادارة
العادلة .

ولا يريد الكواكبي لبنى قومه أن يقنطوا ويستبد بهم اليأس
من مقاومة المستبد . فالمستبد عنده فرد عاجز لا حول له ولا قوة
الا بالمتجدين . والأمة أى أمة كانت ليس لها من يحك جلودها غير
ظفرها ولا يقودها الا العقلاء بالتنوير والاهداء والثبات ، ثم يقبض
الله لها من بنيتها أفرادا كبار النفوس قادة ابرارا يشترتون
لها السعادة بشقائهم والحياة بموتهم حيث يكون جهادهم دينا
واستشهادهم مثلا فهم خلقوا لذلك مثلما خلق الفاسق الفاجر
للتهالك على الشهوات والمثالب .

الاستبداد والمال :

وفي فصل جديد بعنوان الاستبداد والمال يقول الكواكبي
« الاستبداد لو كان رجلا وأراد أن يحتسب وينتسب لقال : أنا
الشر وأبى الظلم وأبى الاساءة وأخى القدر وأختى المسكنة وعمى
الضر وخالى الذل وابنى الفقر وبنى البطالة وعشيرتى الجهالة
ووطنى الخراب ، أما دينى وشرفى وحياتى فالمال المال المال » .

وما أظن ان تعبيرا أجمل من هذا التعبير الذى وصف به
الكواكبي الاستبداد يمكن ان يحل محل هذا القول وهى الكلمات
التي جمعت فوعت وأوجزت فشملت .

يرى الكواكبي انه برغم ان النظام الطبيعى فى كل الحيوانات
حتى فى السمك والهوام ان النوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضا
فاذا بالاستبداد يحيى سنة أكل البشر فجعل الناس طعمة للظالمين
المستبدين المستعمرين .

وما أجمل دعوة الكواكبي الى اشتراكية رقيقه رحيمة بالفقراء فهو بعد أن ينحى باللائمة على رجال السياسة الذين لا يفكرون في ملايين الفقراء من رعييتهم ، كذلك يرى ان التجار الشرهين والمحتكرين يعيش الواحد منهم بمثل ما يعيش به العشرات أو الألوف من الصناع والزراع . ثم يقول : لا ! لا ! لا يطلب الفقير معاونة الغنى ، انما يرجوه ألا يظلمه ، ولا يلتمس منه الرحمة ، انما يلتمس العدالة ، لا يؤمل منه الانصاف ، انما يسأله ألا يميتته في ميدان مزاحمة الحياة .

وبعد أن يثنى الثناء كله على دعوة الا يحتمل تخصيص عشر الأموال للمساكين ثم ما جاء به الاسلام من أن المال هو قيمة الأعمال يدعو الى العدالة الاجتماعية فيقول :

والعدالة المطلقة تقتضي أن يؤخذ قسم من مال الأغنياء ويرد على الفقراء وقد حقق الاسلام ذلك بالزكاة ومنعه التواكل في الارتزاق فليزِم كل فرد من الأمة متى اشتد ساعده أو ملك قوت يومه أن يسعى لرزقه بنفسه كما قرر الاسلام ترك الأراضي الزراعية ملكا لعامة الأمة يستنبتها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط .

وما أظن أن هناك دعوة للاشتراكية أفضل من تحقيق ذلك الذي دعا اليه الكواكبي وتمناه ، فهو يرى ان المعيشة الاشتراكية أبدع ما يتصوره العقل لكنه يتأسف ان البشر لم يبلغوا بعد من الترقى ما يكفي لتوسيعهم نظام التعاون والتضامن في المعيشة العائلية الى إدارة الأمم الكبيرة .

ويرى الكواكبي ان احراز المال محمود اذا ما اقترن بشروط ثلاث :

أولاًها : ان يكون احرازه من وجه حلال مقابل عمل أو فى مقابل ضمان على ما تقوم بتفصيله الشرائع المدنية .

الثانى : الا يكون فى حيازته تضيق على الغير كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء أو التغلب على المباحات مثل امتلاك الأراضى التى جعلها خالقها ممرحاً لكافة مخلوقاته .

وهو يشنى كل الثناء على تحديد الملكية فيشير الى ما اتبعته حكومة الصين على عهده حين منعت ان يمتلك الشخص الواحد أكثر من مقدار معين من الأرض نحو خمسة أفدنة مصرية .

أما الشرط الثالث الذى يرى الكواكبى ضرورة توفره لاحراز المال الا يكون على نحو يتجاوز قدر الحاجة بكثير لأن افراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة .

ويخلص من ذلك الى ان احرار المال لا يتوفر فيه هذه الشروط فى عهد الحكومات المستبدة حيث يسهل فيها تحصيل الثروة بالسرقه من بيت المال وبالتعدى على الحقوق العامة وبغصب ما فى أيدي الضعفاء .

والأغنياء - فى نظر الكواكبى - أعوان المستبد وأوتاده وهم ربائطه يذلهم ويستدرهم أما الفقراء فان المستبد يخافهم خوف النعجة من الذئب .

والكواكبى يخشى أن يفسر قوله بالتزهيد فى المال أنه يشبط عن كسبه انما يقصد الا يتجاوز كسبه الطرائق الطبيعية الشريفة . ويفرق بين الاستبداد فى الحكومات الغربية والشرقية . وهو يرى فى الاستبداد الغربى بعض جوانب الرحمة واللين بعكس الاستبداد الشرقى فانه أكثر ازعاجاً من الغربى وعادة ما يخلف الاستبداد

الغربي حكومة عادلة بعكس المستبد في الشرق فانه اذا ما انتهى حكمه عادة ما يخلفه مستبد اسوء منه .

ويخلص الى القول ان الاستبداد أشد وطأة من الوباء أكثر هولا من الحريق أعظم تخريبا من السيل ، اذل للنفوس من السؤال داء اذا نزل بقوم سمعت ارواحهم هاتف السماء ينادى القضاء القضاء والأرض تناجي ربها بكشف البلاء . الاستبداد عهد أشقى الناس فيه العقلاء والأغنياء وأسعدهم الجهلاء والفقراء بل أسعدهم أولئك الذين يتعجلهم الموت فيحسداهم الأحياء .

وينتقل الكواكبي من حديث الاستبداد والمال الى فصل آخر بعنوان :

الاستبداد والأخلاق ونظريته التي تبناها في هذا المجال هي ان الاستبداد يفسد الأخلاق ويدفع الى الحق ويضعف حب الوطن لأن الفرد غدا آمن فيه يود لو انتقل منه ويضعف من حبه لأسرته لأنه لا يطمئن على دوام علاقته معها .

ويمضي الكواكبي يوضح ان أسوء آثار الاستبداد هي افسادها الأخلاق . فالأخلاق عنده « ثمار بذرها الوراثة وتربتها التربية وسقيها العلم والقائمون عليها هم رجال الحكومة » .

وأقل ما يؤثره الاستبداد في أخلاق الناس أنه يرغم حتى الأخيار منهم الى على ألفة الرياء والنفاق فيفقدون الثقة في أنفسهم وفي غيرهم . ويرى الكواكبي ان الأبحاث كثرت في الآونة الأخيرة في شأن داء الشرق فمن قائل ان سببه فقد التمسك بالدين وآخر يقول ان سببه الجهل وهو يرى ان السبب الأول والهام هو الاستبداد الذي أفسد الأخلاق .

وقد كانت مهمة الأنبياء عليهم السلام في انقاذ الأمم هي انقاذها من فساد الأخلاق بفك العقول من تعظيم غير الله والاذعان

لسواه وتبعهم فى ذلك الحكماء السياسيون الأقدمون فحرروا
الضماير واتبعوا طريق التربية والتهذيب . ثم يقارن بين أخلاق
الشرقى والغربى ويرى فى أخلاق الشرقيين وعاءا يهم الاجتماعية
كثيرا من الأمور التى تحتاج الى علاج . « قد يفضل فى الافراديات
الشرقى على الغربى وفى الاجتماعيات يفضل الغربى على الشرقى
مطلقا . . الغربى يعتبر نفسه مالكا لجزء مشاع من وطنه ، والشرقى
يعتبر نفسه وأولاده وما فى يديه ملكا لأميده . الغربى له على أميده
حقوق وليس عليه حقوق ، والشرقى عليه لأميده حقوق وليس له
حقوق . الغربيون يضعون قانونا لأميدهم يسرى عليه والشرقيون
يسيرون على قانون مشيئة أمرائهم . الغربيون قضاؤهم وقدرهم
من الله والشرقيون قضاؤهم وقدرهم ما يصدر من بين شفتى
المستعبدين .

ويرى الكواكبى أنه ما احوجنا الى ان ننبد الكسل والهزل
ونفقد العزم على الجد والعمل « فلا يكون الشرقى ابن الماضى والخيال
بل ابن المستقبل والجد » .

ويتبع الكواكبى الحديث عن الأخلاق بالحديث عن الاستبداد
والتربية فى قسم مستقل من كتابه .

الاستبداد عنده يؤثر على الأجسام فيسقمها وعلى الأخلاق
فيفسدها ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم . من أجل هذا
فإن ماتبنيه التربية يهدمه الاستبداد . ونلمس من هذا البحث آراء
سبق بها الكواكبى غيره كمصلح اجتماعى . هو يرى ان التربية
ملكة تحصل بالتعليم والتموين والقدرة والاقتباس واهم أصولها
وجود المربين واهم فروعها وجود الدين . والاستبداد مفسد للدين
فى أهم قسميه أى الأخلاق . . وفى رأيه أن العبارات صارت فى
الأمم المستعبدة عبارة عن عبارات مجردة وعادات لا تفيد فى تطهير
النفوس شيئا ومن أجل هذا يخافها المستبد .

والحكومات العادلة تعنى بتربية النسل منذ الصغر فيعيش
سعيدا ينعم بالحرية والعدالة نشيطا على العمل بياض نهاره وعلى
الفكر سواد ليله فيكون ناعم البال .

واذا كانت هذه حياة الناس في ظل الحكومات العادلة ، فان
الحكومات المستبدة تبعث الحيرة وتميت الأمل وتفسد التربية ،
فالناس يضطرون في ظل الاستبداد الى استباحة الكذب والتحايل
والخداع والنفاق والتذلل ونبد الجذ وترك العمل ، وكل حقوق
الانسان في عهد الحكومات المستبدة غير مأمونه أو مصانة بما فيها
الدفاع عن العرض ، لا يجد الناس في ظلها صحة ولا علما ولا غذاء
فهم يالفون الشقاء والفقر ولا يستعطفون في مطالبتهم بحقوقهم كأنهم
طلاب صدقة .

ويخلص الكواكبي الى ان التربية السليمة غير مقصودة
ولا مقدورة في ظلال الاستبداد واذا فسدت التربية فسد الأفراد
وفسدت الأمة والسبيل للإصلاح هو القضاء على الاستبداد أولا ثم
بعد ذلك تكون العناية بالتربية .

ثم ينتقل الكواكبي في فصل آخر للحديث عن الاستبداد
والترقي .

فمن رأيه ان الترقى على أنواع منه الترقى بالجسم صحيا ،
الترقى علما ومالا أو ترقية النفس بحثها على الحُصَال والمفاخر
الحميدة وأرقى أنواع الترقى هو من يسعى الى ترقية الانسانية
جمعاء .

والانسان من وجهة نظر الكواكبي لا يزال يسعى الى الرقى
ما لم يعترضه مانع يسلب ارادته ، وهذا المانع اما القدر المحتوم
أو الاستبداد المشئوم « على ان القدر قد يصدم سير الترقى لمحة
ثم يطلقه فيكر راقيا . أما الاستبداد فانه يقلب السير من الترقى
الى الانحطاط ، من التقدم الى التأخر ، من النماء الى الفناء ، ويلتزم

الامة ملازمة الغريم الشحيح ويفعل فيها ذهرا طويلا أفعاله التي
تبلغ بالامة حطة العجاوات فلا يههما غير حفظ حياتها الحيوانية
فقط ، بل قد تبيح حياتها هذه الدنيئة أيضا للاستبداد اباحة
ظاهرة أو خفية .

وهو يرى ان مهمة الحكماء كانت رفع الضغط عن العقول
لينطلق سبيلها في النمو . ولنلمس في هذا الفصل بحثا ممتازا
للكواكبي عن الدين الاسلامي وكيف أنه جاء على أساس أن يكون
الايمان مبنيا على العقل ، فيرفع عن العقول كل الاوهام والخيالات
والخوف .

ثم يخاطب الكواكبي قومه محاولا ايقاظهم وارشادهم الى انهم
خلقوا لغير ما هم عليه من الصبر على الذل والانحطاط . فيذكرهم
ويناجيهم ويحرك قلوبهم بأقوال تنبض كلها حماسا وتشع من
كلماتها نور الهداية لأنها صادرة من قلب مؤمن غيور على أهله
حريص عليهم يتألم لألمهم لأنهم قومه وبنو وطنه :

يا قوم ، هداكم الله ، الى متى هذا الشقاء المديد والناس في
نعيم مقيم وعز كريم ، أفلا تنظرون ؟ وما هذا التأخر وقد سبقتمكم
الأقوام ألوفا المراحل حتى صار ما بعدكم وراء أفلا تتبعون ؟
وما هذا الانخفاض والناس في أوج الرفة أفلا تغارون ؟ .

يا قوم ، وقاكم الله من الشر ، أنتم بعيدون عن مفاخر الابداع
وشرف القدوة مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل ،
وبدء الحرص على كل عتيق كأنكم خلقتكم للماضي لا للحاضر تشكون
حاضرهم وتسخطون عليه ، ومن لى أن تدركوا ان حاضرهم نتيجة
ماضيكم ، ومع ذلك أراكم تقلدون أجدادكم في الوساوس والخرافات
والامور السافلات فقط ، ولا تقلدونهم في محامدهم ، أين الدين ؟
أين التربية ؟ أين الاحساس ؟ أين الغيرة ؟ أين الجسارة ؟ أين

الثبات ؟ أين الرابطة ؟ أين المنعة ؟ أين الشهامة ؟ أين النخوة ؟
أين الفضيلة ؟ أين المساواة ؟ هل تسمعون أم أنتم صم لاهون ؟

ويمضى الكواكبي مخاطبا قومه بأسلوب أدبي بليغ كله
حماسة وكل كلمة منه لا تصلح سواها لتعبيره . وأهم ما استحدثه
الكواكبي أنه نبذ الأسلوب المتكلف المصطنع والسجع المطرد فخرج
من مستلزمات البيان القديم في الحرص على السجع الى سهولة
التعبير وعدم التكلف في العبارة . وبعد أن يستعيد بالله من قومه
أن يكون قد مسهم فساد الرأي وضياع الحزم وفقد الثقة بالنفس
وترك الإرادة للغير يدعو لهم بالشفاء مما هم فيه قبل ألا ينفع انذار
ولا لوم فاذا ما حل القضاء فلا يبقى غير الندب والبكاء . ثم يدعو
قومه لعدم التصاغر .

» ماذا ترجون من تقبيل الأذيال والأعتاب وخفض الصوت
ونكس الرأس . أليس منشأ هذا الصغار كله هو ضعف ثقتكم
بأنفسكم ..

يا قوم جعلكم الله من المهتدين ، فإن أجدادكم لا يتمنون إلا
ركوعا لله ، وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المنعمين ولو بلقمة
مغموسة بدم الأخوان ، وأجدادكم ينامون الآن في قبورهم مستوين
أعزاء ، وأنتم أحياء معوجة رقابكم أذلاء ..

يا قوم الهمكم الله الرشd ، متى تستقيم قاماتكم وترتفع من
الأرض الى السماء أنظاركم ، وتميل الى تعالى نفوسكم ، فيشعر
أحدكم بوجوده في الوجود ، فيعرف معنى الانانية ليستقل بذاته
في ذاته ، ويملك إرادته واختياره ويثق بنفسه وربه ، لا يتكل على
أحد من خلق الله اتكال الناقص في الخلق على الكامل فيه ، أو
اتكال الغاصب على مال الغافل ، أو الكل على سعي العامل ، بل
يرى أحدكم نفسه إنسانا كريما يعتمد على المبادلة والتعاوض

فيسلف ثم يستوفى ويستدين على أن يفى ، بل ينظر فى نفسه
أنه هو الأمة وحده .

ويدعو الكواكبى قومه أن يشوروا على الظلم وألا يستكينوا
له . ولعله يريد أن يقول لهم ان الأتراك العثمانيين لم يسوموكم
سوء العذاب الا لأنكم استجبتم الحياة على الموت ، فهو يرى أن
بعض ضعاف النفوس هربت من الموت الى الموت وأنهم لو اهتمدوا
الى السبيل لعلموا ان الهرب من الموت موت ، وطلب الموت حياة .
والعزة عند الكواكبى ألا يرضى بنى قومه على الحفاظ على
حريتهم بروحهم ودمهم « ان الحرية هى شجرة الخلد وسقيها
قطرات من الدم الأحمر المسفوح » . . ولو كبرت نفوسكم لتفاخرتم
بتزيين صدوركم بورد الجروح لا بوسامات الظالمين .

ويخص الكواكبى فى كتاب طبائع الاستبداد يوجه كثيرا من
الكلمات الحماسية فنجده يخاطب المسلمين فيردد بعض الافكار التى
تناولها فى كتاب أم القرى من حيث ان جرثومة داء المسلمين هو
خروجهم عن دينهم ، دين الفطرة والحكمة ، دين النظام والنشاط .
فأصبح الدين مشوشا فيه الكثير من البدع والتشديد ومصدر ذلك
هم العلماء المنافقون . ويشرح معنى كلمة لا اله الا الله وهى التى
ينبغى أن تدفع بقائلها الى التصدى لكل ظالم وألا يؤله الا الله
رب العالمين .

وما أجمل دعوة الكواكبى الى اخوانه العرب غير المسلمين حين
يدعوهم الى تناسى الاساءات والاحقاد وكانت فتنة سنة ١٨٦٠ التى
شبّت فى لبنان وامتد أوارها الى سوريا حيث وقع الاقتتال بين
المسلمين من الدروز والمسيحيين من الموارنة وراح ضحيتها آلاف
الارواح وازهقت الكثير من الأنفس . ولقد ثبت بما لا يدع مجالا
للشك ان القوى الاجنبية كانت من وراء تلك الفتنة تغذيها

وتشجعها • فالكواكبي يدعو اخوانه المسيحيين أن يذكروا جيدا تلك القوى الاجنبية التي تريد أن تصطاد في الماء العكر ويقول لهم: يا قوم وأعنى بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين ، أدعوكم الى تناسي الاساءات والاحقاد ، وما جناه الآباء والأجداد ، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين ، وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون • فهذه أمم أوشرى وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة **للإتحاد الوطني** دون الدينى **والوفاق الجنى** دون المذهبى والارتباط السياسى دون الادارى • فما بالنا نحن لا نفكر فى أن نتبع احدى تلك الطرائق أو شبهها • فيقول عقلاؤنا لمثيرى الشحناء من الأعجام والأجانب : دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا ، نتفاهم بالفصحاء ، ونتراحم بالاخاء ، ونتواسى فى العزاء ، ونتساوى فى السراء • دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم فى الاخرى فقط • دعونا نجتمع على كلمات سواء الا وهى : فلتحى الامة فليحى الوطن ، فلنحى طلقاء أعزاء • »

وفى هذا القول ما يؤكد ما سبق أن قلناه فى فصل سابق من ان الكواكبي سبق غيره من الكتاب فى الدعوة الى الوحدة الوطنية فقد كان أول كاتب قومى اتضحت عنده معالم الفكرة القومية ولم تختلط عنده هذه الفكرة بالفكرة الاسلامية أو غيرها على نحو ما يراه بعض المؤرخين •

يحذر الكواكبي أبناء أمتة العربية من الاستعمار الاوربى ، فهؤلاء المستعمرون لا يخرجون عن كونهم تجار يأخذون فسائل الشرق ليغرسوها فى بلادهم وهم (المستعمرون) ينهبون ثروات البلد المحتل ، ويستغلون خيراته فى الوقت الذى يقتلون فى أبنائه روح العزة والاقدام ، يثبطون فيهم الهممة ويبثون فيهم التخاذل والتواكل والضعف والاستسلام •

ثم يتناول الكواكبي قضية هامة وهي أن المستعمرين يحولون بين أبناء الشعوب المستعمرة وبين العلم ، ذلك أن العلم يحيى موات النفوس ويبعث الهممة ويقوى العزيمة ، فيقترب بطلبه طلب الحرية ، ومن ثم ناصبه المستعمرون العداء . فالشعوب الباهلة أسلس قيادا وأكثر استسلاما ، وأضعف عزيمة ، وأقل هممة ونشاطا .

كذلك يقف الاستعمار للغة القومية بالمرصاد يرى في اضعافها والقضاء عليها بداية الطريق لفرض نفوذه ولغته .

والحقيقة أن شواهد التاريخ كثيرة على ذلك ، وأن ما فعله المستعمر الفرنسي في الجزائر خير شاهد وأصدق دليل . فقد جاء في أحد التعليمات التي صدرت في أوائل أيام الاحتلال الفرنسي للجزائر ، ما كتبه مسئول فرنسي حيث قال : ان ايلة الجزائر لن تصبح فرنسية الا عند ما تصبح لغتنا هناك لغة قومية .

وفي تقرير رسمي وضع من جانب الفرنسيين سنة ١٨٤٩ ما يلي : « لا ننسى أن لغتنا هي اللغة الحاكمة ، فان قضاءنا المدني والجنائي والعقابي يجب أن يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون في ساحته بهذه اللغة . وبهذه اللغة يجب أن تصدر بأعظم ما يمكن من السرعة جميع البلاغات الرسمية . . . وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا ، فان أهم الأمور التي يجب أن نعتنى بها قبل كل شيء ، هو السعى وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة وعامة بين الجزائريين الذين عقدنا العزم على استمالتهم اليها ، وتمثيلهم عندنا ، وادماجهم فينا وجعلهم فرنسيين » .

ويرى الكواكبي أن الاستعمار يقف للغتنا العربية بالمرصاد . « دخل الفرنسيون الجزائر منذ سبعين عاما ولم يسمحو بعد لأهلها بجريدة واحدة تقرأ » .

والشرق مهد الحضارات ومهبط الأديان فلماذا استتدله
الغرب ؟ هذا ما يشيره الكواكبي فى بحثه بعد ذلك وفى كلماته
التي وجهها لبني قومه من الشرقيين .

« وأنت أيها الشرق الفخيم رعاك الله . ماذا دهاك ؟ ماذا
أقعذك عن مسراك . أليست أرضك تلك الأرض ذات الجنان والآفنان
ومنبت العلم والعرفان . وسماؤك تلك السماء مصدر الأنوار
ومهبط الحكمة والاديان . وهواؤك ذاك النسيم العدل ، لا العواصف
والضباب . وماؤك ذاك العذب العذب ، لا انكدر ولا الأجاج ؟ »
رعاك الله يا شرق ماذا أصابك فأخل نظامك ، والدهر ذاك
الدهر ما غير وضعك ولا بدل شرعه فيك ؟ ألم تنزل مناطقك
هى المعتدلة ، وبنوك هم الفائقون فطرة وعددا ؟ أليس نظام الله
فيك على عهده الاول ، ورابطة الأديان فى بنيك محكمة قوية ،
مؤسسة على عبادة اصناع الوازع . أليست معرفة المنعم حقيقة
رائحة أشرفت فيك شمسها ، أيدت بها عز النفس ، وأحكمت بها
حب الوطن وحب الجنس ؟ »

وبعد أن يبحث الكواكبي فى أسباب تدهور الشرق وتفوق
الغرب علما فنظاما ففوة ، يرجع ذلك الى أن سببه الاستبداد .
ويوصى الناشئين بعشر وصايا يدعوهم الى حفظها عن ظهر قلب
والعمل بها وهى :

- ١ - ديني ما أظهر ولا أخفى .
- ٢ - أكون حيث يكون الحق ولا أبالي .
- ٣ - أنا حر وسأموت حرا .
- ٤ - أنا مستقل لا أتكلم على غير نفسى وعقلى .
- ٥ - أنا انسان الجد والاستقبال لا انسان الماضى والحكايات .
- ٦ - نفسى ومنفعتى قبل كل شئ .

- ٧ - الحياة كلها تعب لذيذ .
- ٨ - الوقت غال عزيز .
- ٩ - الشرف فى العلم فقط .
- ١٠ - أخاف الله لا سواه .

وينتقل الكواكبى بعد ذلك الى بحثه الأخير فى كتابه « طبائع الاستبداد » وقد جعله بعنوان الاستبداد والتخلص منه .

يستعرض فى هذا الفصل حياة الانسان على هذه الارض وأنظمة الحكم على هذه البسيطة التى لم يهتد الناس بعد الى طريقة مثالية بشأنها ثم يطرح على بساط البحث عددا من المسائل ما هى الأمة - ما هى الحكومة ثم ما هى الحقوق العامة وتوزيع الضرائب والاعداد للدفاع ومراقبة الحكومة ورعاية الأمن ثم ما هو القانون وكيف نفرق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم وفى آخر هذه الابحاث التى يبلغ عددها خمسا وعشرين يبحث فى كيفية رفع الاستبداد .

والكواكبى فى طرحه لهذه المباحث على بساط المناقشة يأتى بأسئلة مبسطة تجعل القارئ يلقى الجواب الصحيح تلقائيا .
فيقول مثلا :

ما هى الحكومة ؟ هل هى سلطة امتلاك فرد لجمع يتصرف فى رقابهم ويتمتع بأعمالهم ويفعل فيهم بارادته ما يشاء ، أم هى وكالة تقام بارادة الأمة لأجل ادارة شئوننا المشتركة العامة :

وفى مبحث مراقبة الحكومة : هل تكون الحكومة لا تسار عما تفعل أم يكون للأمة حق السيطرة عليها لان الشأن شأنها ، فلها أن تنيب عنها وكلاء لهم حق الاطلاع على كل شئ وتوجب المسئولية على أى كان ؟

وفيما يختص برفع الاستبداد نجده يتساءل هل ينتظر ذلك من الحكومة أم أن ذلك مهمة عقلاء الأمة وسراتها .

ويقصد الكواكبي من هذه الابحاث أن يذكر ذوى الألباب على حد قوله . ولعله يريد أن يردد الآية الكريمة « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » ومن الطبيعي أن نجد الكواكبي يفضل فى المبحث الأخير وهو مبحث السعى فى رفع الاستبداد . ويرى أن لذلك قواعد ثلاث :

١ - الأمة التى لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية .

٢ - الاستبداد لا يقاوم بالشدة انما يقاوم باللين والتدرج .

٣ - يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به

الاستبداد .

ثم يتناول القاعدة الاولى فى رفع الاستبداد بالدراسة فىرى أن الامة التى يسودها الاستبداد هى أشبه ما تكون بأمة ميتة فاذا وجد فيها من تدفعه شهامته للأخذ بيدها والنهوض بها فعليه أن يبت فيها الحياة بأن يعلمها بسوء حالتها فاذا هى علمت يبتدأ فيها الشعور بآلام الاستبداد . وهو يشبه فى هذه الناحية قول دعاة الحرية والذين مهدت أقوالهم لقيام الثورة الفرنسية مثل فولتير وما أثر عنه قوله ليس الاستبداد هو الذى يولد الثورة وانما الشعور بالظلم .

ويرى الكواكبي أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة وليس معنى مهادنة هذا الاستبداد وانما هو يرى أن يكون ذلك باقناع أفراد الأمة بمساوئه وأضراره وهو هنا يدعو للتربية والتثقيف شأنه فى ذلك شأن الاستاذ الامام محمد عبده (١) .

(١) عباس العقاد : محمد عبده ص ٢١١

ثم يرى الكواكبي انه ينبغي أن يسبق الثورة على الاستبداد
تخطيط لما ينبغي استبداله بعده حتى لا يحل محله استبداد آخر .
وما أظن أن ثورة من الثورات أهملت ذلك وقدر لها أن تنجح أو
تستمر انها تصبح أشبه ما يكون بوميض للهب سرعان ما ينطفئ
يحرق نفسه قبل أن يحرق غيره .

ويختتم الكواكبي كتابه بأنه غير يأس من المستقبل فان يوم
الله قريب الذى يقل فيه التفاوت فى العلم وعندئذ تتكافأ القوات
بين البشر فتتحل السلطة ويرتفع التغالب ، فيسود بين الناس
العدل والتوادل فيعيشون بشرا لا شعوب وشركات لا دولا .

وهكذا يرتفع الكواكبي فوق نظرة الباحث الضيق الذى
لا يتجاوز بحثه حدود بلده أو وطنه انه يبشر بمستقبل سعيد لكل
بنى الانسان لا يظلم قويهم ضعيفهم يسودهم الاخاء والمحبة .

ولا عجب أن نجد كتابات الكواكبي وآراءه تجد لها صدى
لا فى البلاد العربية وحدها بل وفى غيرها من أنحاء العالم وستظل
لها دورها وسيستمر لها سحرها حتى يرث الله الارض ومن عليها .

خاتمة

وبعد فهذه دراسة لشخصية عربية فذة جاد الزمان بها على الأمة العربية وهي أحوج ما تكون اليه ينبتها من غفلتها ويوقظها من سباتها ويبث فيها روح الأمل ويزيح عنها كابوس اليأس والقنوط ويذكرها بأمجادها وهو يبني الأمل الكبير على شباب هذه الأمة وهم طلائع الغد وأمل المستقبل . ومن أجمل عباراته يخاطب بها الشباب قوله :

« يا قوم أريد بكم شباب اليوم رجال الغد شباب الفكر رجال الجدد أعيدكم من الخزي والخذلان بتفرقة الأديان ، وأعيدكم من الجهل ، جهل ان الدينونة لله وهو سبحانه ولي السرائر والضمانر ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة .

أناشدكم يا ناشئة الأوطان ، أن تعذروا هؤلاء الواهنة الخائرة قواهم الا في ألسنتهم ، المعطل عملهم الا في التشبيط ، الذين اجتمع فيهم داء الاستبداد والتواكل ، فجعلها آلة تدار ولا تدبر . وأسألكم عفوهم من العقاب والملام ، لأنهم مرضى مبتلون ، مثقلون بالقيود ، ملجمون بالحديد ، يقضون حياة خير مافيها أنهم آباؤكم . »

وواضح من هذه العبارات السابقة ان الكواكبي يخشى أن تمتد عدوى القنوط واليأس من بعض رجال زمانه الى شباب هذه

الأمة العربية التي كان يأمل الإصلاح والنجاة لهذه الأمة على أيديهم .
فبعد أن يذكر بعض العادات السيئة التي ألفها كثير من الناس على عهده
يرجو الشباب أن ينشأ على غير ذلك فيقول :

نحن ألفنا الأدب مع الكبير ولو داس رقابنا • ألفنا الثبات
ثبات الأوتاد تحت المطارق • ألفنا الانقياد ولو إلى المهالك • ألفنا
أن نعتبر التصاغر أدبا ، والتذلل لطفا ، والتملق فصاحة ، والكلفة
رزانة ، وترك الحقوق سماحة ، وقبول الإهانة تواضعا ، والرضا
بالظلم طاعة ، ودعوى الاستحقاق غرورا ، والبحث عن العموميات
فضولا ، ومد النظر إلى الغد أملا طويلا ، والاقدام تهورا ، والحمية
حماقة ، والشهامة شراسة ، وحرية القول وقاحة ، وحرية الفكر
كفرا ، وحب الوطن جنونا •

أما أنتم حماكم الله من السوء ، فترجو لكم أن تنشأوا على
غير ذلك ، أن تنشأوا على التمسك بأصول الدين ، دون أوهام
المتفنين ، فتعرفوا قدر نفوسكم في هذه الحياة فتكرمونها ،
وتعرفوا قدر أرواحكم وانها خالدة تثاب وتجزي ، وتتبعوا سنن
النبين فلا تخافون غير الصانع الوازع العظيم • ونرجو لكم أن
تبنوا قصور فخاركم على معالي الهمم ومكارم الشيم ، لا على عظام
نخرة ، وان تعلموا انكم خلقتم أحرارا لتموتوا كراما فاجهدوا أن
تحياوا تلكما اليومين حياة رضية ، يتسنى فيها لكل منكم أن يكون
سلطانا مستقلا في شئونه ، لا يحكمه غير الحق ، ومدينا وفيا لقومه
لا يضمن عليهم بعين أو عون ، وولدا بارا لوطنه ، لا يبخل عليه
بجزء من فكره ووقته وماله ، ومجبا للإنسانية يعمل على أن خير
الناس أنفعهم للناس ، يعلم ان الحياة هي العمل ووباء العمل
القنوط ، والسعادة هي الأمل ، ووباء الأمل التردد ويفقه ان القضاء
والقدر هما عند الله ما يعلمه ويمضيه وهما عند الناس السعي
والعمل ، ويوقن ان كل أثر على ظهر الارض هو من عمل اخوانه

البشر ، وكل عمل عظيم قد ابتداء به فرد ثم تعاوره غيره الى أن
كمل ، فلا يتخيل الانسان في نفسه عجزا ولا يتوقع الا خيرا
وخير الخير للانسان أن يعيش حرا مقادما أو يموت » •

تلك بعض وصايا الكواكبي لشبابنا العربي وما أظن ان
شبابنا أحوج لشيء أكثر من ذلك الذي خاطبه به هذا الكاتب العربي
الكبير بل ما أظن ان ألمشرفين على أمور الشباب في كل قطر عربي
يوصون جيل الغد بأكثر ما نادى به الكواكبي • هو يدعوهم الى العزة
والحياة الحرة انكريمة لا يستكينون للقيم ولا يرضون الذل ، يطالبهم
بعدم التردد وعدم الاستسلام لليأس والارتكان على ان ما فيه وطنهم
هو من ارادة الله وعلينا انرضنا والقبول • فان الله سبحانه وتعالى
اعطانا القدرة واعطانا الفكر والارادة لنعمل وقد راينا كيف ان
الكواكبي حمل كثيرا على دعاة الجبرية والقدرية وراى ان الخطر من
هذه الناحية خطر كبير وعظيم ، ذلك ان دعاة اليأس والتردد
والخذلان ينفثون سمومهم من هذه الناحية باسم الدين ، والدين منهم
براء •

أما عن بعض صفاته الجسمية فيقول السيد كامل الغزى (١)
انه (الكواكبي) كان مربوع القامة ، حنطى اللون ، مستدير الوجه ،
خفيف العارضين ، أقنى الأنف ، ذا عينين زرقاوين ، معتدل المقلة
لا غائرها ولا جاحظها ، معتدل فتحة الفم ، أزج الحاجبين واسع
الجبين ، صغير الأطراف معتدل الجسم بين السمن والهزال أسود
الشعر •

أما عن اخلاقه وسجاياه :

فقد جاء وصف الغزى لها مطابقا لأوصاف كل المعاصرين له
كان منذ حداثة سنه تلمع في محياه مخايل النجابة والشهامة وعلو

(١) مجلة الحديث العدد ٦ سنة ١٩٢٩

الجناب وحسن الطبع لا قيمة عنده للمال ، ولوع بالتفضل على أقرانه
وخلانه لا يرضى ان يسبقه بالبذل غيره يأنف من الكذب والتدليس
والغيبة والنميمة ، ويرى التلبس بهذه الحلال الذميمة دناءة وغدرا ،
وخورا فى الطبع ، وكانت نفسه العزيزة عليه تأبى الخضوع لأهل
المجد الباطل ولا يرى ما يطفىء نار غضبه منهم أفضل من قهرهم
واذلالهم ، وأغرب عاطفة فيه انه كان لا يرى هدفا جديرا يصوب اليه
سهام الطعن والتنديد غير أعظم الرجال كالولاية والمتصرفين الذين
سأت سيرتهم وقبحت أعمالهم . وكان ذلك اعتقادا من الكواكبي ان
الواجب على المصلح أن يبدأ باصلاح الرأس فاذا صلحت صلح الجسد
كله بالطبع .

وكان لا يسوءه شئ مثلما يسوءه الظلم وعدم العدل فالحال
الجائر ينبغى أن يتصدى له كل مؤمن بالله لان ذلك أوجب الواجبات
عليه . وكثيرا ما كان يردد البيت الشهير .

إذا لم تقم بالعدل فينا حكومة فنحن على تغييرها قدراء
ونجد صفيه وصديقه المرحوم كامل الغزى يؤكد فى حديثه
عن الكواكبي انه كان يقول بالطرفة ويعتقد بنجاحها اذا قرنت بالحزم
والعزم والثبات وهو يرى التدرج فى نيل المطالب تضييعا للعمر ،
وافساحا لمجال حدوث ما قد يجعل المطلوب ميئوسا منه . وقد اشتهر
ذلك عن الكواكبي حتى قال أحد أصدقائه المخلصين فى ولاءه : أن
السيد عبد الرحمن مجموعة حماس لا عيب فيه سوى قوله بالطرفة
وسوى تلك الجرأة المفرطة الأمر الذى كدر عليه موارد الحياة وأسلمه
الى يد الاضطهاد . وقطع عليه خط الرجعة فى راحته . فأمضى حياته
يتجرع المصائب يودع مصيبة ويستقبل أخرى وانطبق عليه قول
الشاعر :

وإذا كانت النفوس كبارا
تعبت فى مرادها الأجسام

وكان الكواكبي طموحا للمعالي لا يلجأ الى الاناة والتردد بل كان يثب الى مناطقها وثبة دون تدرج ولا تراخ في قطع المراحل الطويلة المؤدية اليها فلا يشعر الا وقد عرضت له عقبة تحول بينه وبين مقصده . ويمضى الغزى يستشهد على ذلك بانه كان لا يطرب للتغنى ولا تميل نفسه الى مجالس اللهو والطرب ويروى ان الكواكبي قال له وهم في مجلس يتذكرون السماع وتأثيره في النفوس « هل الطرب بالغناء الاوهم وضعف مزاج واضاعة وقت فيما لا يجدى ؟ »

تلك كانت بعض اخلاق وسجايا عبد الرحمن الكواكبي . اما عن سعة علمه وقدره تحصيله في العلوم فما شك أحد من معاصريه أو ممن أرخوا له على انه بلغ في ذلك ذروة قل أن يبلغها أحد مثله .

ألم الكواكبي باللغة التركية فأجادها وعمل مترجما في عدد من الصحف يترجم مقالاتها الى العربية على نحو ما ذكرنا ويقول الغزى « سمعت مرات عديدة من المرحوم زهدى أفندى قاضى حلب يقول : ان السيد عبد الرحمن قاموس باللغة التركية وكثيرا ما كان يسأل عن بعض كلمات وتراكيب تركية شذت عن فهمه مع أنه كان من أكثر علماء الأتراك . اما عن المامه باللغة العربية وقواعدها وأصول الكتابة بها وحسن التعبير واختيار الكلمة المناسبة فما أظن ان هناك نقدا يمكن أن يناله في هذه الناحية . واشتهر عن الكواكبي سهولة الفاظه فقد خلت أو كادت من الغريب وكان يرسل عبارته فليس فيها سجع ملتزم مما يقيد حرية الكاتب وأدخل الى النشر أمورا جديدة . فقد كان النشر قبل الكواكبي لا يتناول الموضوعات الاجتماعية الا فيما ندر فاذا بالكواكبي يستعمل الأسلوب العلمى المتأدب وهو يوضح الظواهر الاجتماعية ويتناول مشكلات عصره . اما قدرته على النقد وتمحيص الحقائق واقامة البراهين والحجج على ما يحاول اثباته أو نفيه فحدث عن ذلك ولا حرج ويذكر الغزى عنه روحه المرحة فيقول : كنا نسمر معه وعدنا يزيد على عشرة أشخاص

فيشغل كل واحد منا بموضوع يقترحه عليه ويشياكله به ، ويبين له فيه خطاه وصوابه .

وكان بارعا بفنون السياسة عالما باحوال الدول واسع الاطلاع على حقوق الدول ونهضاتها وثوراتها . ويذكر المؤرخون حياته انه كان متضلعا بقوانين الدولة العثمانية وأنظمتها مع المام كاف بفروع الفقه والتصيب وافر من علوم اللغة العربية في النحو والصرف .

ومات عبد الرحمن الكواكبي ولكن فكره لم يمت وآراءه لم تبطل لأنها أبقي على الزمن من أن يطويها في سجل النسيان . وظلت الأيام تحملها في ريح رخاء سهل لتلقنها من جيل الى جيل من ابناء هذه الأمة تدعوهم أن يعملوا بها وأن تكون تلك الآراء دستورا لهم وشريعة ومنهجها لأنها صادرة عن قلب مخلص مؤمن بهذه الأمة أن تحيا حياة كلها عزة وسؤدد لأن الله سبحانه وتعالى قد شرفها فجعلها أمة وسطا وجعلها شاهدة على باقي الأمم يوم يرث الله الأرض ومن عليها .

فهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
الفصل الأول : عصر الكواكبى	١١
الفصل الثانى : موطن الكواكبى ونشأته الاولى	٣٩
الفصل الثالث : القسم الثانى والأخير من حياة الكواكبى (الكواكبى فى مصر)	٦٣
الفصل الرابع : دور الكواكبى فى اليقظة العربية	٨١
الفصل الخامس : الكواكبى من خلال آثاره الخالدة (دراسة لكتابه أم القرى)	١٠١
الفصل السادس : الكواكبى والاستبداد	١٣٥
خاتمة	١٦١

فهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
الفصل الأول : عصر الكواكبي	١١
الفصل الثاني : موطن الكواكبي ونشأته الاولى	٣٩
الفصل الثالث : القسم الثاني والأخير من حياة الكواكبي (الكواكبي في مصر)	٦٣
الفصل الرابع : دور الكواكبي في اليقظة العربية	٨١
الفصل الخامس : الكواكبي من خلال آثاره الخالدة (دراسة لكتابه أم القرى)	١٠١
الفصل السادس : الكواكبي والاستبداد	١٣٥
خاتمة	١٦١



مرکز تحقیقات و پژوهش در علوم اسلامی